الدكتور
إبراهيم صلاح الهدهد
الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر - القاهرة
ورئيس جامعة الأزهر سابقًا وعضو مجمع البحوث الإسلامية

حركة المعنى في سورة الفجر

دراسة بلاغية

مكتبة وهبة

حركة المعنى في سورة الفجر
دراسة بلاغية
دكتور إبراهيم صلاح الهدهد
الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة
الأولى لمكتبة وهبة ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١١٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٨/٢١٨٦٩
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-484-2

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى المؤلف وهو المسئول عنها وحده

دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الهدهد ، إبراهيم صلاح .
حركة المعنى في سورة الفجر دراسة بلاغية
إبراهيم صلاح الهدهد . - ط١ ، القاهرة :
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٩
١١٢ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٢ ٤٨٤ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ – القرآن ، بلاغة .

أ- العنوان

٢٢٥

9 789772 254842

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمد الشاكرين ، أجزل علينا فضل إنعامه ، وشملنا بعظيم إكرامه ، حتى لم نطق شكره ، ولم نقم بحق بره وإحسانه ، وأصلي وأسلم على خير خلقه وصفوته من أنبيائه ورسله .

وبعد ...

فهذا الكتاب الموسوم بـ(حركة المعنى في سورة الفجر .. دراسة بلاغية) نمط من الدرس البلاغي الصابر للسورة القرآنية ، يقيم البرهان الساطع على الإعجاز البلاغي للذكر الحكيم ، وهو ليس تفسيرا للسورة ، ولا بيانا لمعانيها ، وهو يؤمن أن السورة القرآنية لها مقصد واحد تدور تراكيبها عليه ، وأن مطلع السورة يمثل شاطئ مقصودها ، وجذر المعنى الرئيسي في السورة الكريمة ، وأن خاتمة السورة تمثل الشاطئ الثاني ، وأن المعنى يتفجر من المطلع ، ويتحرك تحركا خفيا إلى أن يصل الشاطئ الثاني ، وأن ما يذكر من الموضوعات المشتركة بين السورة وغيرها من سور الذكر الحكيم ، يتسم بسيما السورة ، ويبدو فيه ما يميزه عما ورد في غيره ، أقصد أن المعنى المذكور في السورة يتلفع بروح مقصودها الأعظم ، من مثل ما يرد من حلقات في قصص السابقين ، فستجد أوصافًا لهذا المعنى خاصة بالسورة لم ترد في سواها ، كأن ترى لفظا خاصا بالسورة في الموضوع من مثل : الذي حجر ـ إرم ذات العماد ـ التي لم يخلق مثلها في

البلاد ، وغير ذلك مما تراه منثورا في تضاعيف الكتاب ، لذا يوجب درس هذا النمط على الباحث فيه أن تكون السورة أمام عينيه والقرآن العظيم كله مثل صفحة معروضة في عقله ، ولأنها سورة الفجر وجدت فيها حديثًا عن النفس المطمئنة ، ولم تجده في سواها ، وقد حدثنا الذكر الحكيم في أكثر من موضع عن الدمار الكوني للأرض ـ نسأل الله ألا يدركنا هذا الزمان وألا ندرك هذا الزمان ـ لكنك ترى السورة تختص بالحديث عن دك الأرض ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ .

إن السورة الكريمة على قصرها تتناول موضوعات عدة ، والمعنى الساري في هذه الموضوعات هو الذي يفسر أسرار ترتيب هذه الموضوعات في السورة ، كما أن المعنى الساري في تراكيب السورة من أولها إلى آخرها ، اقتضى افتتاحها بالقسم ، واقتضى اصطفاء مقسم عليه بعينه ، وقد جاء القسم افتتاحا ، ثم جاء ذكر الغابرين ، ثم جاء تقسيم الإنسان ، ثم جاء الحديث عن يوم القيامة ، وهكذا فما علّة هذا الترتيب إلا أن يكون المعنى الساري في السورة هو الذي استدعاه ، إن مراقبة حركة المعنى ، وسبر جريانها من خلال تدبر التراكيب ، لمن أعظم ما يبين عن تلاحم السورة القرآنية ، وهو يرمي مباشرة في دائرة الكشف عن بلاغة الذكر الحكيم ، ولقد سقت هذا الكتاب تجربة أمام الباحثين ليحاولوا السير في هذا الطريق ، ومهمة أهل العلم أن يعبّدوا طرائق البحث تعبيدا عمليا ونظريا للأجيال من بعدهم ، فهذا من تحمل أمانة العلم وبلاغه ، وأسأل الله التوفيق والسداد ، فمنه ـ وحده ـ الرشاد ، وهو ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المقطم في : ١٦ من صفر ١٤٤٠هـ

الموافق : ٤ من نوفمبر ٢٠١٨م

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

اللهم إني أتوجه إليك بالحمد والثناء أن أنزلت القرآن عربيًّا ، وأن جعلتني مسلمًا عربيًّا ، وأن هديتني إلى معايشة أسراره ، وفقه إعجازه .

اللهم إني أضرع إليك أن تغفر زلاتي في فقه كتابك ، وأن تستر عوراتي في تأمل أحوال بيانه ، وأن ترزقني التأمل الحق ، والتدبر الصدق ، وأن تهديني فقه الصواب ، كما أضرع إليك أن تقيل هذه الأمة عثراتها ، وأن تزيل غفلتها ، وتكشف غمتها .

وبعد ...

فهذا بحث بلاغي في سورة الفجر ، قصدت إليها لقصرها ؛ عونًا لي في خوض لجة مثل هذا النوع من البحوث البلاغية في الذكر الحكيم ، وليس هذا البحث تفسيراً للسورة ، ولا تحليلاً بلاغيًّا لأساليبها ، وإنما هو غير ذلك ؛ وأبادر فأقر أنه بحث كثير المزالق ، جم العورات ، واسع الخروق ، ذكرت ذلك بين يدي البحث حتى أعذر ، وحاولت فيه أن أكتب ما وسعتني الكتابة ، وأن أبذل ما وسعني الجهد بغية الوصول إلى الصواب ، أو أهدي غيري إليه إن لم أوفق في ذلك ، فلولا الخطأ ما كتب الناس الصواب .

وقد جاءت كتابتي في حركة المعنى بعد معايشة دائبة لفقه كلام الله ـ عز وعلا ـ فقد كتبت في التخصص «أسرار تنوع تشبيهات القرآن

الكريم» وكتبت في العالمية عن «علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم ـ دراسة بلاغية ـ نظرية تطبيقية»، وكتبت في أسلوب الترجي «الترجي في آي من الذكر الحكيم»، واستقصيت مواقع لفظة واحدة في الذكر الحكيم مستشرفًا بذلك أثر السياق في اصطفاء الكلمات ، كما استشرفت أثر السياق في اصطفاء الأساليب في بحث الترجي ، وهذه اللفظة هي «وراء .. مواضعها وأسرارها في نظم القرآن الكريم» .

وبعد هذه الدراسات اطمأن قلبي ، ووثق الاعتقاد عندي أن السورة القرآنية لها غرض واحد تتظاهر تراكيبها عليه ، ولها معنى واحد تهدف آياتها إليه ، كما استقر لدي أن التعرف على المعنى الذي هو قطب آي السورة ، أمر دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، لا يتأتى إلا بعد صبر دائب ، وجهد متواصل ، ومعايشة دائمة ، وفهم متأن لكلام السلف ـ رضوان الله عليهم ـ وتوفيق من قبل كل ذلك .

حين التعرف على معنى السورة ومقصدها ، لابد أن تكون السورة أمام عينيك والكتاب العزيز كله مثل صفحة معروضة في عقلك ، لأن أغراض السور القرآنية تشتبه وتتقارب في بعض منها إلى حد الإلباس ، وتحديدك المعنى والهدف هو عمود هذه الدراسة ؛ لذا يجب التثبت والتروي في تحديد غرض السورة . وهناك بعض الخطوات التي حاولنا وضعها في الاهتداء إلى الغرض في السورة القرآنية . وهي في صدر هذا البحث .

بعد تحديد المعنى تحاول تلمس الخصائص الأسلوبية التي وردت عليها آي السورة ، والتي جعلت تراكيبها ألصق بهدف السورة ، وأعلق بمقصدها ، وهذا يقتضيك التثبت المطمئن ، والتأمل الواعي ، والتدبر المتأني ، وخاصة حين تجد في السورة ـ محل بحثك ومطمح نظرك ـ حلقة من قصص النبيين ، وهذا مما يكثر وروده فتنداح دائرة النظر عندك ،

وتنفسح دائرة التأمل أمامك ، ويستدعى التأمل كثيرًا من المراجعة ، وكذلك في الأحاديث التي يكثر دورانها في الذكر الحكيم كظواهر تدمير الكون ، ومواقف الحساب وغير ذلك مما سيعرض لك .

ومن بعد ذلك تتأمل علاقات تجاور الآيات ، وعلائق أنسابها ، وأثر ذلك في التراكيب ، وفي اصطفاء الأساليب ، بحيث تنص على الخصائص الأسلوبية التي تربط الآيات بغرض السورة وهدفها ، نصًّا يمنع مايقاربها من الآيات في السور الأخرى من مجيئها في هذا السياق ـ محل بحثك .

وبعد فقه التراكيب ترقب حركة هذا المعنى ، متى انبعثت ؟ ومتى كانت ضوءًا خافتًا؟ ومتى أشرقت؟ ومتى أضاءت كالشمس في ضحاها؟ متى سارت سيرًا حثيثًا ومتى تحدرت؟ ومتى حط المعنى رحاله؟ أنت في كل ذلك تحاول التسلل إلى مسارب المعنى من خلال التراكيب ، فهي معبرك ومسلكك إلى فقه حركة المعنى .

وهذا النمط من الدرس البلاغي الصابر للسورة القرآنية ، يقيم البرهان الساطع والآية القاهرة على الإعجاز البلاغي للذكر الحكيم ، ويكشف أن السياق ذو أثر بالغ في اصطفاء الألفاظ ، واصطفاء التراكيب ، ويبرهن أنه من المحال بلاغة وضع آية في غير موضعها من الذكر الحكيم ، بما لا يوجد في بيان البشر شبيه له ولا مقارب .

على أنك في مراقبتك حركة المعنى في السورة كمن يرقب مسرى النفس في النفس ، وكمن يحاول إبصار الماء في شجرة تتشابك أغصانها ، وتتشعب جذورها . وكلاهما غيب عنك ، إلا أن الأغصان والأوراق والجذور تهدي إلى حركة الماء ، وكذلك الجوارح تهدي إلى حركة النفس ، والأمر من الصعوبة كما ترى ـ ومن الخطر كما تبصر ، وبحث مثل هذا كثير الخطأ ، قليل الصواب .

ومن أعظم دوافعي إلى خوض هذا الحمى ما كتبه شيخي الجليل الدكتور محمد أبوموسى في مقدمة كتابه «من أسرار التعبير القرآني .. دراسة تحليلية لسورة الأحزاب» في تضاعيف حديثه عن وجوه كثيرة من بلاغة القرآن غير المدروسة ، وكان مما ذكره باب علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم ، وقد عرض لما كتبت في هذا الموضوع ، وذكر أن علاقة المطالع بالمقاصد هي أصل باب البحث البلاغي في حركة المعنى . يقول : «ومن وجوه بلاغة القرآن غير المدروسة ـ كما ينبغي ـ حركة المعنى داخل السورة ، ومراقبة نموه وامتداده ، وذهابه وارتداده ، وهذا باب من أخفى أبواب البلاغة وأغمضها ، ولا يصغره عندك ما تراه من خوض العامة والخاصة فيه ، وقولهم على البديهة ، وإصابتهم أحيانًا ، لأن هذا من تيسير الله لكلامه ـ سبحانه ـ قرب منه قدراً من المعاني ، كأنه مشترك بين الناس ، ثم بعد ذلك تأتي المراتب مَرْتَبَةً بعد مَرْتَبَةٍ ، حتى تكون هناك مرتبة في الفهم خاصة بالراسخين من أهل العلم ، وهذا الجزء المضنون به على غير أهله ، هو ما يتجه إليه العمل والنظر ، وتتوخاه البحوث ، فإن أصابت ، وإلا قاربت ، أو مهدت الطريق لسالك يصيب أو يقارب ... [إلى أن قال :] ... واعلم أن علاقة المطالع بالمقاصد هي أصل هذا الباب» (٢٥ : ٢٧) .

وقد وجدت في كلامه الحاث والدافع ، فقد قطع كل عذر ، وسد كل ذريعة ، فاجعلني اللهم ممن أصاب أو قارب أو مهد ، واغفر لي ذنبي واستر عيبي ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المقطم في : ١٤١٨هـ

الموافق : ١٩٩٨م

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

عفا الله عنه

حركة المعنى
مفهومها ـ علاقتها بالدرس البلاغي

المعنى هو الروح التي تسري في القصيدة أو المقطوعة الأدبية ، ومن قبل كل ذلك في السورة القرآنية ، فلكل قصيدة أو رسالة أو مقطوعة مقصد وهدف تسعى القصيدة بتراكيبها إليه ، وتتظاهر الجمل ببنائها وعلائقها في الكشف عن هذا الغرض ، فيسري المعنى في الكلام مسرى النفس في النفس كما قال الأئمة ، وتشي التراكيب بأحوال كاتبيها وهواجسهم ، يتحسس الذائقون هذه الأحوال في الصياغة .

وكلما شرف الكلام ونبل وعلا استغلقت أسراره ، فلم تنكشف لكل أحد إلا لأهل البصر بالكلام الذين يبحثون عن مراد المتكلم وما خالط هذا المراد من أحوال النفس . من أجل هذا كان التعرف على حقيقة المعنى من تراكيب الكلام من الخطر بمكان .

هذا عن خطر التعرف على المراد ، وأخطر منه أن تبصر المقصد وكيف قذف به الشاعر أو الأديب في صدر كلامه ، ثم تهدَّر الكلام من بعد ذلك شرحًا للمقصد أو تفصيلاً له أو إثباتًا له؟ وكيف رتب البيان عن غرضه ومقصده؟ وفي أي المواضع كان أظهر ، وفي أيها كان أخفى وأدق؟ أنت في ذلك كالمراقب الحريص أو الصائد الماهر الذي برَّز في تصيد الخفي من الأشياء ، والشعراء يبرعون في الكشف عن

أحاسيسهم ، ولا يُبرز تمام أحاسيسهم مما وشى به كلامهم إلا يدُ صَنَاعُ حذقت فنون الكلام ، وخبرت خفاياه ، وعرفت مداخله ومخارجه .

والمعنى في القصيدة الجيدة كالماء في العود الأخضر أو الشجرة الناضرة ، فلا يقبل النابهون من الشعراء أن يكون في أغصانهم أو أشجارهم ـ التي هي قصائدهم ـ غصن يابس أو ورقة ساقطة ، أو فرع ناب أو عود متخاصم مع الشجرة ، وإنما تعض نفوسهم على ألا يفرغ أي من أجزاء أغصانهم أو أشجارهم ـ التي هي قصائدهم كما ذكرنا ـ من الماء الذي هو الهدف والمعنى ، والذي يدب الحياة في كل أنحاء القصيدة .

والأمر من الخطر ـ كما ترى ـ وليس التعرف عليه متأتيًا لكل ناظر في الكلام ؛ لأن الشاعر يأبى أن تقرأ أحاسيسه وأنت غافل لاه ، لأن شعره جزء من خلاصة نفسه ، وقد خطته يداه من بعد مشقة وعناء ، ولا يغيب عنك قول الفرزدق : « تأتي عليَّ ساعة ونزع ضرس أهون عليَّ من نظم بيت »، ولا ما يحكى من أن بعضهم إذا ما تأبى عليه الخاطر ركب بعيره وضرب في الصحراء ، فهو المتيقظ عندما ينام الناس ، وهو المتعب عندما يستريح الخلق .

قلت إن حركة المعنى ومراقبته في كلام النابهين من الشعراء والأدباء أمر ذو خطر شديد ، وأنت الخبير أن من أعظم العيب أن ترى بعض الأبيات في بعض القصائد لا صلة لها بما هدف الشاعر إليه ؛ إذ تراه أنت كالشيء الشائه في المنظر الجميل ، فيطفئ نور القصيدة ، ويعكر صفو مائها ، الذي هو أصل الحياة فيها .

وكل قصيدة خلت من وحدة المعنى والمقصد ، خلت الحياة منها وليست بشيء عند النقاد ، لأنك لو جمعت جوارح من أجساد متعددة

لتجعلها جسدًا واحدًا ، كنت من العابثين ، ونفخت في فحم ، وضربت على حديد بارد كما قال علماؤنا .

هذا خطر البحث في كلام الناس ، وإنما ذكرته بين يدي ما أريد قوله ؛ إلقاء للعذر بين يدي البحث في كلام الله ـ عز وعلا ـ وطلبًا للنصح . على أن ما ذكرته هو محاولة لشرح كلام الأئمة في الكشف عن حركة المعنى في السورة القرآنية ، ووصف آيات السورة ومكان المعنى في كل منها ، فالسورة عند الأئمة هي شجرة نضيرة ، ومعنى هذا أن المعنى من السورة كالماء من الشجرة ، ثم إن السورة في الذكر الحكيم لها جذور في الكتاب العزيز كله ، فيحتاج التعرف على حركة المعنى إلى إبصار الجذور التي هي أصل هذه الشجرة وإبصار حركة الماء الذي في هذه الجذور ، وهو باب دونه خرط القتاد كما قال أئمتنا ، أما البحث عن حركة هذا المعنى في السورة الواحدة ، فهو بابٌ عصى غير أنه ممكن ـ إن شاء الله ـ إذا مهد له العلماء وتدرب على الكتابة فيه أهل العلم والبصر ، فتكون كتاباتهم زادًا لأبنائهم من العلماء ، على أنه باب الخطأ فيه أكثر من الصواب ، وإنما يجب ألا نخشى الخطأ حتى نهتدي إلى الصواب .

فالعلائق بين السورة وأخواتها تشبه علائق جذور أشجار الحديقة الواحدة ، والعلائق بين الآيات في السورة الواحدة تشبه علائق الأغصان والأوراق بالشجرة ، ثم إن المقصد أو المعنى هو الماء الذي يسري في الشجرة وأغصانها وأوراقها ، ثم إن التراكيب وبناء الجمل هي المعبر الذي يهدي إلى هذا الماء وحركته والكشف عن منزلة كل آية وكلمة من هذا المعنى .

هذا ما حاولت تفهمه في كلام أهل العلم ، وإليك كلامهم في هذا الأمر لتزداد بصرًا ، ذكر البقاعي ـ رحمه الله ـ أن الله جعل الكتاب العزيز « متعانق المقاطع والمطالع ، وأنزله رياضًا محكمة المذاهب والمراجع »[1] ، وأن « السورة كالشجرة النضيرة العالية والدوحة البهيجة الأنيقة الخالبة ، المزينة بأنواع الزينة ، المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدرر ، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر ، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة بما بعدها ، وآخر السورة قد واصَل أولها ، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها ، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغر البديعة النظم ، العجيبة الضم ، بلين تعاطف أفنانها ، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها ؛ ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك القصد »[2] .

وهو كلام كاشف عن تشابك سور الكتاب العزيز ، وتشابك آي السورة الواحدة في التظاهر على المقصد الواحد ، وأن المقاصد تظهر في الأبنية والتراكيب وترتيب الآيات ، فقد يقع الاختلاف في ترتيب قصة ما في سورة ما ، تلاؤمًا مع الغرض وتناسبًا مع حركة المعنى في السورة ، وقل مثل ذلك في التراكيب وفي الألفاظ . ومن أجل صعوبة هذا الباب كان القول فيه عزيزًا .

الدرس البلاغي هو أداة هذا الباب ، فمن أجل المعنى والمقصد تختلف أحوال التراكيب، والتعرف على هذه الأحوال وأسرارها يهدي إلى المعنى ،

---

(١) نظم الدرر ٢١/٢٤٨ .

(٢) مصاعد النظر ١/١٥١ ، ١٥٢ .

ويقف الباحث على حركته . فتأمل التراكيب واستكشاف أسرارها هو أصل هذا الباب .

وقد عد العلماء النظر في تركيب كل جملة بمفردها والوقوف على أسرارها طريقًا للإعجاز ، وعدوا الوقوف عليها كذلك مع أختها بالنظر إلى الترتيب طريقًا آخر للإعجاز .

قال البقاعي ـ بعد بيان خطر علم المناسبات ـ وهذا يكشف أن للإعجاز طريقين « **أحدهما** : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب .

والثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب . والأول أقرب تناولا وأسهل ذوقًا ، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه ، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ، ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره ، وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز ، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها ، خفي عليه وجه ذلك ، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد ، فظن أنها متنافرة ، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط ، ربما شككه ذلك بكثير ، وزلزل إيمانه ، وزحزح إيقانه ، وربما وقف مكيس من أذكياء المخالفين عن الدخول في هذا الدين بعد ما وضحت لديه دلائله وبرزت له من جمالها دقائقه »[1].

لابد إذن من سلك واحد ينتظم آيات السورة الواحدة ، وتسعى آيات السورة كلها نحو هذا المقصد وذلك المعنى على نسيج متقن ، وترتيب محكم ، وتأمل أسرار التراكيب وأحوالها هو المعبر إلى ذلك .

---

(١) نظم الدرر ١/٧ .

وأظهر من كل ذلك في بيان الطريق إلى الكشف عن حركة المعنى ، والوقوف على مراقبة امتداده ، هو ما ذكره العلامة أبو الفضل المشدالي المغربي فيما نقل عنه البقاعي ـ رحمه الله ـ « الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن ، هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له ، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل ، بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، وإذا فعلته تبين لك ـ إن شاء الله ـ وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة ، والله الهادي »[1] .

طرائق التعرف على المعنى :

نبه شيخنا الدكتور أبوموسى إلى أن علاقة المطلع بالمقصد في السورة هو أصل هذا الباب[2] ، ومن الطرائق التي يمكن التعرف على المعنى باتباعها ما يلي :

أولاً : حصر الألفاظ التي وقعت في السورة ولم تقع في سواها ، وتأمل معناها ، وغالبًا ما تكون هذه الألفاظ هي المعالم الدالة على توزع المعنى في السورة .

ثانيًا : حصر الموضوعات التي وقعت في السورة ولم تقع في سواها ، واستكشاف علاقتها بالهدف والمقصد .

---

(١) نظم الدرر ١/١١ .

(٢) انظر : من أسرار التعبير القرآني ص٢٧ .

ثالثًا : النظر فيما وقع في السورة من قصص النبيين ـ إن وجد ـ ومناظرته بما يقاربه في الذكر الحكيم كله . وقل مثل ذلك في الموضوعات المشتركة .

رابعًا : تأمل تراكيب المطلع ، فإن المطلع يجمل المقصد الذي تتظاهر عليه تراكيب السورة . والبديع أنك ترى في كثير من السور أن ما جاء عمدة في تراكيب المطلع جاء عمدة في السورة ، وأن ما جاء تابعًا في المطلع وقع كذلك في السورة . على أَنَّا قد بينا هذا في دراسة أخرى ، وانتهينا إلى أن تحديد المطلع قائم على إبصار الجملة النحوية وتوابعها في صدر السورة(١) .

خامسًا : تأمل كلام أهل العلم في المناسبات بين الآيات وبين السور ، وهو علم عزيز ، كما ذكر ابن الزبير الثقفي(٢) ـ رحمه الله ـ فقد قال : «لم أر في هذا الضرب الخاص ـ يعني علم المناسبة ـ شيئًا لمن تقدم وغَبَرَ ، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات ، وذلك في الباب أوضح ، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح . وأما تعلق السور على ما ترتب في الإمام ـ يقصد مصحف عثمان ـ واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم ، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم»(٣) .

---

(١) انظر : بحثنا للدكتوراه بعنوان «علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية تطبيقية»، الباب الخامس ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة، ١٤٤٠هـ .

(٢) ابن الزبير الثقفي : هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، عرف بنسبته إلى جده الأول الزبير من علماء الأندلس (ت ٧٠٨هـ) .

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن ص٧٢ .

النظرة الأولى في سورة الفجر

حين ينظر العَجلُ في سورة الفجر ، يرى عند باده النظر أنها تناولت أغراضًا متعددة ، وموضوعات متنوعة على قصرها ، ففيها قَسَمٌ يلقاك في أولها ، ثم حديث عن الأمم الغابرة من عاد وثمود وفرعون ، ثم حديث عن عقاب هذه الأمم ، ثم تقسيم الإنسان حال الابتلاء وحال الإنعام ، ثم الحديث عن مساوئ الإنسان ، ثم حديث عن القيامة وعن يوم الحساب ، ثم الحديث عن أهل الجنة وعن أهل النار .

أنت عند النظرة العَجْلَى ـ كما قلت ـ تتوهم أنها موضوعات متعددة وأغراض شتى ، وربما يعينك على ذلك وجهة نظر بعض أهل العلم في اشتمال السورة القرآنية على أغراض شتى ، ومؤداها أن السورة تشتمل على عدة أغراض ، لأنه لا يتأتى لكل مؤمن أن يقرأ القرآن كله ، فجاءت السورة على أغراض متعددة حتى تلائم حال كل قارئ وما يشتهيه من أنواع العلم ، فربما يكون من محبي القصص فلا يفوته أن يرى ذلك ، وربما يكون من عاشقي الأحكام فلا يفوته ذلك . هذا ملخص كلامهم ، وهو كلام له وجاهته ، غير أنه مردود بكثير من الأمور ، منها أن السور القصار لا يظهر فيها هذا ، ومنها أن قصة أي نبي عدا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لم تشملها سورة واحدة ، وإنما وردت قصة النبي الواحد في عدة سور . على أي حال فهذا ما يظهر للقارئ عند النظرة الأولى .

غير أن الذين اعتادوا مساءلة الكلام ، والذين أولعوا باستكشاف علائق الأنساب بين المعاني ، حين يطالعون سورة الفجر تدور في أذهانهم عدة أسئلة ، من مثل :

ما علاقة القسم بالفجر بالقسم بالليالي العشر ، وما علاقته بالشفع والوتر ، ولماذا الشفع والوتر خاصة ؟

ما العلاقة بين هذه الأقسام وبين الحديث عن قوم عاد وثمود وفرعون؟ وأي اختصاص أسلوبي للحلقات المصطفاة من هذه القصص ، وما علاقة هذه الاختصاصات بالأقسام ؟

وما علاقة القصص هذه بالحديث عن الإنسان المُبْتَلَى والآخر المكرم ؟ ولماذا كانت علة ابتلاء الإنسان هنا عدم إكرام اليتيم ، وعدم التحاض على طعام المسكين ، وأكل التراث وحب المال ؟ وهل هي الأسباب في الابتلاء فحسب ؟

ثم إن علامات الساعة وآياتها الكبرى كثيرة ، فما علة اختصاص السورة بدك الأرض ؟ كذلك مواقف الحساب كثيرة فَلِم اصطفى القرآن موقف مجيء الله والملائكة صفًّا صفًّا ؟

وما علاقة كل معنى بالقسم في أول السورة وبقصص الأمم السابقة ؟ وما علة اختصاص السورة بالنفس المطمئنة ؟

هذا عن السؤال عن بعض العلاقات باختصار . ثم تتساءل النفس : ما علاقة آخر السورة بأولها ؟ وما علل ترتيب هذه الموضوعات التي أشرنا إليها ، لماذا جاء القسم بهذا التتابع ، ثم أعقبه قصص الأمم السابقة ، ثم أعقبه تقسيم الإنسان ، ثم أعقبه الحديث عن يوم القيامة وعن يوم الحساب ، ثم الحديث عن النادم وعن المطمئن وجزاء كل ؟

لماذا وردت بعض الألفاظ في هذه السورة ولم ترد في سواها من سور الذكر الحكيم ، من مثل (الشفع ـ الوتر ـ يسر ـ لذي حجر ـ إرم ذات العماد...) إلى آخر ذلك ، كما سنحاول بيانه بإذن الله .

وقل مثل ذلك في التراكيب . وقل مثل ذلك في مساءلة الكلام المقدس عما اختصت به التراكيب المشتركة التي وردت في السورة ووردت في مواضع أخر .

أظنك الآن أدركت خطر هذا الدرس ، وعرفت وعورة البحث فيه . قلت هذا حتى أعذر ، فإني واقع وإن تحاميت ، وإني زال مهما تنبهت ، وإني عاثر مهما أبصرت ، وعذري أنني محاول ، والله من وراء القصد ، وهو الهادي سواء السبيل .

الإعجاز بالتناسب بين السور والآي

علاقات الآيات وأسرار تجاورها في السورة ، وكذلك أسرار تجاور السور ، ضرب من الإعجاز كما ذكر الأئمة ، فقد ذهب أبو جعفر النحاس إلى أن تأليف القرآن من إعجازه[1] ، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن هذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله ؛ لأنه لو كان التأليف من غير الله ورسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم[2]، وذهب الفخر الرازي ـ في تفسير سورة البقرة ـ إلى أن من تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته[3] .

ومن أجل هذا ذهب جمع من علماء الأمة إلى أن ترتيب السور في المصحف الشريف توقيفي ، ويطلع على ذلك أسباب :

أحدها : بحسب الحروف ، كما في الحواميم .

وثانيها : موافقة أول السورة لآخر ما قبلها في المعنى ، كآخر الحمد وأول البقرة .

وثالثها : الوزن في اللفظ ، كآخر تبّت وأول الإخلاص .

---

(١) الإتقان ٢/١٣٨ .
(٢) الناسخ والمنسوخ ص ١٥٩ .
(٣) مفاتيح الغيب ٧/٣٤ .

ورابعها : مشابهة جملة السورة لجملة الأخرى ، مثل « والضحى » و« ألم نشرح »[1] .

وقد ردوا مذهب القائلين : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ؛ لأنها حسب الوقائع المتفرقة . ردوا ذلك بأنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلاً ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر . والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة ؟ ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ وقد ذكروا أن في ذلك علمًا جمًّا ، وقالوا أيضًا « في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له »[2] .

هذا ، وفقه المناسبات بين السور والآيات يكون بالنظر إلى المعاني وكيف تجاورت وتحاورت في الكتاب العزيز ؟ والتراكيب هي المعابر إلى فقه المعاني ، لأن أثر التناسب في المعاني يظهر في التراكيب ، والدرس البلاغي الصابر هو الذي يظهر تناسب المعاني بفقه التراكيب ، حتى تكون العلاقة بين التراكيب والمعاني كفلق الصبح .

وبهذا تكون دراسة تناسب التراكيب في السورة وفي السور من أعظم أبواب الفقه ، وحديث أئمتنا دال على أنهم كانوا يحسون هذا التناسب ، ولهم في ذلك إشارات زاخرة بالعلم البلاغي الذي لا تجده في كتب البلاغيين . وخلاصة القول أن تناسب المعاني يتبعه تناسب الألفاظ والتراكيب ، وهو مما يجعل الدرس البلاغي وسيلة لا غاية .

---

(١) البرهان للزركشي ١/٢٦٠ .
(٢) المرجع السابق ١/٣٧ .

موقع السورة في الكتاب العزيز

تتناسب السورة مع ما قبلها ومع ما بعدها ، وحاول العلماء كشف ذلك وإيضاحه ؛ فسورة الأعلى أجملت حالي المؤمن والكافر والنار والجنة ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴾ (الأعلى:١٠-١٢)إلى قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴾ (الليل:١٧) ثم جاءت الغاشية شرحًا وتفصيلاً للجنة والنار[1] ﴿ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ ﴾(الغاشية:٤،٥)وهو شرح للنار الكبرى وتفصيل ليوم الجزاء ، وإثبات لهذا اليوم بالإحالة إلى تدبر قدرة الله في مخلوقاته يعاينونه ويشاهدونه من خلق الإبل ، ورفع السماء ، ونصب الجبال ، وتسطيح الأرض .

ثم جاءت سورة الفجر لتؤكد إثبات مجيء يوم الجزاء ، ويكون قطب ذلك فيها الأمم الغابرة ، وهذا ما ألمع إليه ابن الزبير حيث قال بعد الحديث عما خلقه الله للإنسان مما جاء في سورة الغاشية : « فالإبل لأثقالهم وانتقالهم ، والسماء لسقيهم وإظلالهم ، والجبال لاختزان مياههم وإقلالهم ، والأرض لحلهم وترحالهم . فلا بهذا استبصروا ولا بمن خلا قبلهم من القرون اعتبروا »[2] أي ما عرض في سورة الغاشية فيه استدلال على الخلق ، والخالق قادر على البعث مرة أخرى ، وهي أدلة مبصرة ومشاهدة ، فكأن سورة الغاشية تثبت يوم الجزاء بطريق ، وتثبته سورة

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص ١٤٩ ، ١٥٠ بتصرف .
(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص ٢٢٧ .

الفجر بطريقة أخرى ، والسورتان كأنهما تفصيل لما أجملته سورة الأعلى ، وسورة البلد امتداد لهذا الغرض في إثبات الجزاء والحساب ، وهكذا تتعاقب السور في تناول الأغراض تعاقبًا لا سبيل إلى تقديم فيه أو تأخير .

وهناك تراكيب في السور المتجاورة توحي بهذا ، خذ من ذلك مثلا قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ** ﴾ (الأعلى:٩، ١٠) تجد نوره في قوله من سورة الغاشية : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ (الغاشية:٢١، ٢٢) . حين تتدبر أنت هذين التركيبين ترى أنهما كالمتتابعين تتابعا يكشف عن تصعيد المعنى ، فالأمر بالتذكير في التركيب الأول متبوع بقيد ﴿ **إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ** ﴾ (الأعلى:٩) وقد ذكر العلماء أجوبة لهذا القيد ، منها أن هذا القيد جاء إشارة لئلا يتعب الرسول ﷺ نفسه ويتلهف عليهم ، أو لذم المذكَّرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم ، أو للإشعار بأن التذكير إنما يجب إذا ظن نفعه[1] .

ومعلوم أن هذه التأويلات إنما هي بعد إلزامهم الحجة؛لأن الرسول ﷺ مأمور بإنذار الكل ، والمعنى : أنْ ذكّرهم وإن كان نفع الذكرى قليل التوقع . أما التركيب الثاني فقد أتبع فيه الأمر بجملة فيها قصر ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ وبما يشبه التوكيد المعنوي لها ﴿ **لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ فبينهما كمال اتصال ، أي : ذكر وإن انتفى نفعه ؛ لأن مهمتك التذكير . ألا تبصر معي أنه أعلى حدة من التركيب الأول ، وكأنه تصعيد للكشف عن حال المخاطبين وأن إنكارهم وانتفاء انتفاعهم بالتذكر غدا محالاً . حتى انتصب الاهتمام على أداء مهمته ﷺ في التذكير فقط دون نظر إلى نفع ذلك أو عدمه ؟

(١) البيضاوي بهامش الشيخ زادة ٤/ ٦٥٠ بتصرف .

خذ في اعتبارك ما ذكرت ، ثم اقرأ قوله تعالى في سورة الفجر ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ (الفجر:٢٣) وكأنه تسلية للرسول ﷺ بكشف حال الكفار حين الحساب وتذكرهم ، كأنها معان متعاقبة كما قلت لك . أي ذكر حين يكون نفع التذكير محتملاً .

ألا تلمح معي تناسبًا في قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ (الأعلى:٢) ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ (الأعلى:٤، ٥) ألا ترى أن قوله تعالى في سورة الغاشية ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ (الغاشية:١٧) كالمثال والشاهد لـ﴿ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ (الأعلى:٢) ونموذج لبيان نعمة الله في المرعى ؟ ألا ترى أن كل ذلك داخل في قوله في سورة الفجر ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ (الفجر:٢٠)؟ كذلك ترى التناغي بين قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى:١٥) وبين قوله تعالى في سورة الفجر ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴾ (الفجر:١-٣) فالفجر هو أول الصلوات والشفع والوتر يذكرونك بالعشاء وهي آخر الأوقات .

كذلك ترى ما أجملته سورة الأعلى ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (الأعلى:١٦) تفصله سورة الفجر ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ (الفجر:١٧-٢٠) وترى في هذه التراكيب نغمة إيثار الحياة عالية ، فهم لا يتحاضون على طعام المسكين فضلاً عن أن يطعموه ، وهم لا يميزون الحلال من الحرام في جمع المال إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة . وترى نوره أيضًا في سورة البلد ﴿ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ ﴾ (البلد:١٤، ١٥) .

كذلك ترى تشابهًا في المعنى يتبعه تقارب في التركيب في قوله تعالى : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ (الغاشية:٢٤) مع قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ (الفجر:٢٥،٢٦) وكأنها شرح لشيء من العذاب الأكبر أو عرض للمعنى بطريقة أخرى من التركيب آكد منها .

كذلك نرى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية:٢٥،٢٦) يشرحه قوله تعالى في آخر سورة الفجر ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ (الفجر:٢٣) إلى آخر السورة . تفصيلاً للإياب والحساب .

كذلك تقابل بعض المعاني مع البعض الآخر ، من ذلك قوله تعالى في سورة الغاشية : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ (الغاشية:١٧-١٩). ترى هذا الإنعام الرائع يقابله دمار رهيب ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ (الفجر:٢١) في سورة الفجر .

وهكذا ترى السورة تتشابك معانيها مع سابقتها ولاحقتها تشابكا لا سبيل لك إلى إنكاره ، مما يدلك على أن التجاور بين السور إنما هو بتوقيف من الله عز وعلا ؛ إذ هي حبة في ذلك العقد المنظوم من أول البقرة إلى آخر الذكر الحكيم ، ولو تتبعت معنى واحدًا من الفاتحة إلى البقرة إلى آل عمران ... إلى آخر الكتاب العزيز ، لما كفاك عمرك لاستكشاف ذلك ووصفه والبيان عنه بيانًا شافيًا ، مع أن إحساسك بعلاقات القربى بين المعاني يتعالى صداه في نفسك ، فإذا ما نزعت إلى قيد هذا الإحساس بالقلم ند عليك كطيف من نور يشع في فؤادك ، فإذا أردت الإحاطة به حاولت محالاً وطلبت ما لا ينال .

وقاصمة الظهر الأشد مما مضى أنك ترى مقصد سورة الفجر ـ أو غيرها من السور ـ يتقارب مع مقاصد سور أخرى ويتشابك تشابكًا يصعب معه فض هذا التشابك حتى تكون المقاصد كالحدود الفاصلة ، غير أنك ترى أن مقصد كل سورة يسلمك إلى مقصد السورة التالية لها في تسلسل معجز ، وهو قبل أن يسلمك إلى مقصد السورة التالية يلقي أطيافًا في حواشي الآية تشير إلى المقصد التالي . إن هداك الله إلى الوقوف على ذلك أيقنت أن ترتيب السور توقيفي .

تأمل قول السيوطي في لحظ مناسبة سورة الفجر للغاشية : « لم يظهر لي من وجه ارتباط سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها من قوله جل جلاله : ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم** ﴾ (الغاشية:٢٥،٢٦) وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد ، كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في (عم) . هذا مع أن جملة ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ (الفجر:٦) هنا مشابهة لجملة ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ** ﴾ (الغاشية:١٧) هناك »[١]، ولعل التشابه في الإحالة على النظر في السورتين ، أي أفلا ينظرون في الحاضر والغابر ـ لتدبر قدرة الله وقهره ، في حال الخلق والتدمير .

ثم ألمع إلى تواصل سورة الفجر مع ما بعدها سورة البلد فقال : « أقول : وجه اتصالها بما قبلها أنه لما ذم فيها من أحب المال ، وأكثر التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة والإطعام في يوم ذي مسغبة »[٢] .

(١) تناسق الدرر ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص١٥١ .

ومنه أيضًا ما ذكره ابن الزبير في سورة الفجر : « أبدى سبحانه لمن تقدم ذكره وجهًا آخر من الاعتبار ، وهو أن يتذكروا حال من تقدم من الأمم وما أعقبهم تكذيبهم واحترامهم »(١) فكأن السورتين تعاونتا في إبراز مقصد بطريقين متعانقين في إثبات الإياب والحساب .

وقد لمح أبو حيان المناسبة بين السورتين فقال : « لما ذكر فيما قبلها : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ (الغاشية:٢) ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ (الغاشية:٨) أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (الفجر:٢٧) . وأيضًا لما قال : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ (الغاشية:٢٣) قال هنا: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر:١٤) تهديدًا لمن كفر وتولى »(٢) .

وقد ذكر علامة هذا الباب (علم المناسبة) أنه : « لما ضمنت تلك بأنه لا بد من الإياب والحساب ، وكان تغيير الليل والنهار ، وتجديد كل منهما بعد إعدامه ، والأعلى القدرة على البعث ، وكان الحج قد جعله الله في شرعه له على وجه التجرد عن المخيط ولزوم التلبية والسير إلى الأماكن المخصوصة آية مذكرة بذلك ، قال : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ (الفجر:١) »(٣) .

وذكره الحج هنا جاء على ما تأوله العلماء في (ليال عشر) من أنها عشر ذي الحجة كما سيأتي بيانه بعد . وهو ـ كما ترى ـ التقط المناسبة

(١) البرهان ص ٢٢٧ .
(٢) البحر المحيط ٤٦٧/٨ .
(٣) نظم الدرر ٤١٣/٨ .

التقاطًا نابها ، إذ أبصر في القسم بالفجر حركة البعث التي تذكر بالموت ، وهي أكبر شاهد ، وأعظم دليل على أنه ـ عز وعلا ـ سيعيد الخلق كما بدأهم ، وكما توحي به مظاهر الحياة ، فإذا ما ثبتت إعادتهم بالحجة ، ثبت حسابهم ، وربما يدور في ذهنك أن معظم الأقسام المتصدرة كثيراً من السور فيها هذا المعنى ﴿ وَٱلنَّجۡمِ ﴾ (النجم:١) ﴿ وَٱلشَّمۡسِ ﴾ (الشمس:١) ﴿ وَٱلَّيۡلِ ﴾ (الليل:١) فإن النجم يظهر ويختفي ، وكذلك الشمس ، وكذلك الليل ، ومعنى هذا أنه كان يمكن لسورة النجم أن تكون في موضع سورة الفجر ، وقل مثل ذلك في سورة الليل وغيرها .

والجواب ـ إن شاء الله ـ أن الفجر ـ خاصة ـ يعقب الليل ، والليل فيه السكون وفيه النوم ، والنوم أشبه شيء بالموت ، والتيقظ أشبه شيء بالإحياء ، والفجر هو أول اليقظة وأول الانتشار ، ولا ترى في النجم شيئًا من هذا ولا في الليل ولا في غيرها من الأشياء المقسم بها ، وإن كان في كل منها جزء مما في الفجر ؛ إذ هو فاصلة بين ما يشبه الموت وما يشبه الحياة .

يطول بنا الحديث إن أردنا أن نثبت لك أن النوم موتة صغرى ـ عقلاً ـ واليقظة كذلك إحياء أصغر ، غير أنك من الممكن أن تستشعر ذلك لو تأملته حال نومك ، وحال يقظتك ، والله يوفقني وإياك إلى فقه ذلك .

المهم أنك ترى العلامة البقاعي يريك كيف أن كل سورة تشع بمقصد السورة الأخرى وأن ترتيب السور معجز . لعلك قد أيقنت أن المعنى في السورتين يأبى أن تضع سورة الفجر في غير هذا الموضع من الذكر الحكيم .

بل إن أبا حيان ـ رحمه الله ـ قدر جواب القسم في ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ (الفجر:١) بما دلت عليه خاتمة سورة الغاشية ، فجواب القسم عنده (والفجر ... لإيابهم إلينا وحسابهم علينا) ، وذكر الشوكاني أن هذا التقدير ضعيف جدًّا[١] ، والحق أنه رأي سديد يعي تواصل السور وتتابعها ، وينظر إلى الآية في سياقها الطويل .

(١) البحر المحيط ٤٦٨/٨ ، ٤٦٩ ، فتح القدير ٤٣٢/٥ ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢١٣/٩ .

مقصد السورة الكريمة

ذكر ابن عاشور أن السورة الكريمة حوت من الأغراض ، ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون ، وإنذارهم بعذاب الآخرة ، وتثبيت النبي ﷺ مع وعده باضمحلال أعدائه ، وإبطال غرور المشركين من أهل مكة ؛ إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامة على أن الله أكرمهم ، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة أن الله أهانهم ، وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضهما الضعفاء ، وما زادتهم إلا حرصًا على التكثر منها ، وأنهم يندمون يوم القيامة على أنهم لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به ، يوم لا ينفع نفسًا مالها ولا ينفعها إلا إيمانها ، وتصديقها بوعد ربها ، وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة[١] .

هذا ما ذكره الشيخ وهو غرض واحد ، وإن صدره بقوله حوت من الأغراض . فكلامه دال على أن السورة كلها دارت حول ضرب المثل لمشركي مكة ، وما ذكره بعد ذلك هو من مستتبعات هذا المثل ، والغرض منه ، فكأن ضرب المثل الغاية منه إثبات عذاب الكافرين ، وإنذارهم وتهديدهم ، وهذا ما صرح به الشيخ عبد المتعال الصعيدي ـ رحمه الله ـ فقد ذكر أنه « يقصد من هذه السورة إثبات عذاب الكافرين ، وقد جاء أكثرها في إنذارهم وتهديدهم ، إلى أن ختمت بشيء من الترغيب

(١) التحرير والتنوير ٣١/٣١١ ، ٣١٢ .

لتجمعهما معًا ، وبهذا يشبه سياقها سياق سورة الغاشية ، ويكون ذكرها بعدها مناسبًا لها »[1].

والواضح أن كلامهما ـ رحمهما الله ـ يتفق في نهاية المطاف في أن السورة لها مقصد واحد ، عليه تدور آياتها ويتواصل المطلع فيها بالخاتمة تظاهرًا على بيان هذا المقصد . خذ ما عرضته من قول الشيخين ، ثم تدبر قول البقاعي في الكشف عن مقصد السورة « ومقصودها : الاستدلال على آخر الغاشية (الإياب والحساب)، وأدل ما فيها على هذا المقصود الفجر ، بانفجار الصبح عند النهار الماضي بالأمس من غير فرق في شيء من الذات ، وانبعاث النيام من الموت الأصغر ، وهو النوم ، بالانتشار في ضياء النهار لطلب المعايش للمجازاة في الحساب بالثواب والعقاب »[2] .

العلامة لم يكتف ببيان المقصد ، وإنما أراك المناسبة ، وكشف لك كيف قذف القرآن بمقصد السورة في أول كلمة فيها ، ثم بين لك ترتيب المقصد في السورة فجعل المقصد الاستدلال على الإياب والحساب ، وحين تتدبر أنت آيات السورة الكريمة لا تراها خارجة عن هذا المقصد حين تتأمل تراكيبها ، وخصائصها ، وطابعها البلاغي الذي لا تجده في سورة أخرى .

ثم إن كشفه هذا المقصد يدلنا على أن للسورة خيطًا دقيقًا يصلها بفاتحة الكتاب ، فهي مما يوضع من الكتاب تحت قوله تعالى : ﴿ **مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ** ﴾ (الفاتحة:٤) فهي شارحة له ، وبين الفاتحة وبين سورة الفجر خيط دقيق ، خذ من ذلك مثلاً قصتي البقرة والأطيار والحمار في سورة

---

(١) النظم الفني ص ٣٤٩ .

(٢) نظم الدرر ٤١٣/٨ .

البقرة ، وما فيها من الدلالة على الإياب ، وإثبات الإياب إثبات للحساب ، لابد أن ترى ذلك في كل السور .

وهناك سور تتقارب مقاصدها مع مقصد هذه السورة ، خذ من ذلك مثلاً سورة الأنبياء فمقصودها : الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت ، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير[1] . وفيها كان ذكر مصارع الأمم الغابرة طريقًا من طرق إثبات الساعة ووقوعها ، غير أن طبيعة التراكيب هناك تخالف طبيعة التراكيب في سورة الفجر ، فليس في الأنبياء نصوص صريحة لمصارع الغابرين ، وسورة الفجر فيها إجمال لمصارعهم ، وبوسعك أن تقارن بين التراكيب في السورتين حتى تقع على الفروق .

ومن ذلك أيضًا سورة النبأ ، فمقصودها : الدلالة على أن يوم القيامة ... ثابت ثباتًا لا يحتمل[2] غير أن طريق الإثبات فيها أشبه بما في الغاشية من الموضوعات ، وإن كان ما في النبأ أكثر بسطًا مما في الغاشية من حيث الإحالة في إثبات ذلك على ما في الكون ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ:٦،٧) ترى لها شبهًا كبيرًا بقوله تعالى في الغاشية ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:١٩،٢٠) . وأنت تبصر أن المعاني متقاربة ، وليست متكررة ، وكأن هذا التغاير في التراكيب كما أنه إلماع إلى اختلاف المقاصد ، فهو إلماع أيضًا إلى اشتباهها وتقاربها .

---

(١) نظم الدرر ٥/٦٣ .

(٢) المرجع السابق ٨/٢٩٤ .

ولا ينتهي بنا القول إلى حـــد إذا مـا أردنـا تتبـع مثـل هـــذا في الـذكر الحكيم ، مع أنه بحـث رائـق رائـع تنقطـع دونـه الأعنـاق ، وتمضـي دونـه الأعمار ، إلا أنه يجب أن نشير إلى مثله ، ربما يهيئ الله له من طلبة العلم وأهله من يقوم بحقه .

وقد أبصرت ـ كما أشرت إليـك سـلفًا ـ أن كـل مجموعـة مـن السـور القرآنية يمكن وضعها تحت آية من فاتحة الكتـاب أم القـرآن ـ كمـا قـال سيدي رسول الله ﷺ وفداه أبي وأمي ونفسي وعيني .

حول الافتتاح بالقسم

القسم عند البلاغيين من الإنشاء غير الطلبي ، ولم ينل حظه من الدرس البلاغي ، لأن الإنشاء الطلبي هو الأحق بالعناية والنظر ؛ لاختصاصه بمزيد أبحاث لم تذكر في بحث الخبر ، ولأن كثيراً من الإنشاءات غير الطلبية في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء[1] ، هذا ما علل به البلاغيون لعدم الاهتمام بالإنشاء غير الطلبي ، وقد أخرج بعضهم أفعال الترجي والقسم[2]، لكثرة المباحث المتعلقة بهما .

هذا ، ولم يقصد البلاغيون أن الإنشاء غير الطلبي عار من الأسرار البلاغية ، وإنما قصروا بحثهم على المشكل من ألوان الإنشاء ؛ لتشابك علمي المعاني والبيان في الطلبي كخروج الاستفهام إلى المجاز وغير ذلك مما هو مذكور في كتبهم .

من أجل ذلك قال الشيخ المنياوي : « فأما غير الطلب .... فلم يتعرض لها في النظم لقلتها ، ولأنها منقولة عن الخبرية ، فأحوالها تستشعر من أحوال أصلها الذي هو الخبرية »[3]. أي أن الإنشاء غير الطلبي داخل في

(١) انظر : الإيضاح ٣٢/٢ ، المطول ص ٢٢٤ ، خلاصة المعاني ص ٢٢٦ ، حسن الصنيع ص ٦٧ .

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢٣٦/٢ .

(٣) حاشية المنياوي على شرح حلية اللب المصون ص ١١٦ .

الباب البلاغي المتسع وهو النظر إليها من حيث مطابقتها الحال ، وما وراء ذلك من الأسرار كما ذكر شيخنا الدكتور[1] أبو موسى .

هذا ولا يغرنك ما تراه عند بعض البلاغيين من إهمال هذا اللون بترك الحديث عنه ، أو بالعنونة لباب الإنشاء بـ (أحوال الطلب) أو (قانون الطلب) [2] إلى آخره ، فإن للإنشاء غير الطلبي مواقع فاعلة ، وقد تناولنا لونًا منه في بحث سابق[3] ، وقد وجدنا فيه كلامًا رائعًا للمفسرين لم يذكره البلاغيون .

هذا ، وإن كان البلاغيون لم يولوا القسم مزيد اهتمام في الجانب النظري ، فإن المفسرين قد خدموه في الميدان التطبيقي ، فذكروا مقاماته وأغراضه وإيحاءاته ، فهو يرد للتوكيد في المقامات التي تقتضي مزيد توكيد كالأمور الغائبة والخفية حين القسم على ثبوتها ، فأما الظاهر فيقسم به ولا يقسم عليه كالشمس والقمر[4].

وقد ذكر النحاة أن القسم جملة يؤكد بها الخبر ، حتى إنهم جعلوا قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ (التوبة:١٠٧) قسمًا وإن كان فيه إخبار ؛ لأنه لما جاء توكيدًا للخبر سمى قسمًا ، ولا يكون إلا باسم معظم[5]، وأوجز كلمة قالها سيبويه : « اعلم أن القسم توكيد لكلامك »[6].

---

(١) دلالات التراكيب ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
(٢) المصباح ص ٨٣ ، مفتاح العلوم ص ٣٠٢ الإشارات والتنبيهات ص ١٠٠ .
(٣) الترجي في آي من الذكر الحكيم ، بحث منشور بحولية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٧م .
(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ٦ .
(٥) البرهان ٣/ ٤٠.
(٦) الكتاب ٣/ ١٠٤ .

وقد ذكر علماؤنا أنه يحسن في مقام الإنكار ، ثم أجابوا على شبهة ربما تلامس بعض الصدور ، عن معنى القسم منه سبحانه ، قالوا : « فإن قيل : ما معنى القسم منه ـ سبحانه ـ فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار ، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده ؟ فالجواب : قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يفصل باثنتين إما بالشهادة وإما بالقسم ، فذكر تعالى النوعين حتى لا يبقى لهم حجة[1] ».

وقد ذكر الشيخ الجمل جوابًا على هذا الاعتراض المشهور عند كلامه على سورة الصافات بعد إيراد الاعتراض « وأجيب بأنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في غالب السور بالدلائل الغيبية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم ، تأكيدًا لما تقدم ، لا سيما والقرآن أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب ، ... أنه ـ تعالى ـ لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله : ﴿ **إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ** ﴾ (الصافات:٤) عقبه بما هو الدليل اليقيني في كون الإله واحدًا وهو قوله : ﴿ **رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ** ﴾ (الصافات:٥) »[2] .

فللقسم مقاماته وأغراضه ، وهو من أساليب العرب والقرآن في توكيد المعاني ، وقد لحظ المفسرون أيضًا التناسب بين المقسم به والمقسم عليه ، ولحظوا أيضًا التناسب بين القسم وبين السورة المفتتحة به ، تأمل قول ابن عاشور في سورة الصافات : « وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن القسم

---

(١) البرهان ٣/٤١ ، الإتقان ٢/١٦٩ وما بعدها .
(٢) الفتوحات الإلهية ٣/٥٢٨ .

بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية ، لأن الأصنام لم يدَّعوا لها ملائكة ، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق ، ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدالّ خلقها على عظم الخالق ، ويؤذن القسم بأنها أشرف المخلوقات العلوية ، ثم إن الصافات التي لُوحظت في القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها ، فالصافات يناسب عظمة ربها ، والزاجرات يناسب قذف الشياطين عن السموات ، ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضًا ، ويناسب زجرها الناس في المحشر ، والتاليات ذكرًا يناسب أحوال الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وما أرسلوا به إلى أقوامهم ... والقسم لتأكيد الخبر مزيد تأكيد ، لأنه مقتضى إنكارهم الوحدانية »[1] ، فقد أبصرت أنه ـ رحمه الله ـ قد لحظ التناسب بين أول السورة في الأقسام وبين موضوعاتها .

وقد ذكر علماؤنا أن الأقسام إن توالت في أول السورة فهي كالقسم الواحد ، وأضيف أن تتابعها يكشف عن تتابع التناسب بين آيات السورة ، كما يكشف عن شدة الارتباط بين آي السورة ، فالقسم وجوابه في مفتتح السورة يمثل خريطة لآي السورة ، ويشير الارتباط بين القسم وجوابه إلى ارتباط الآي كما ذكرنا ، فهي تتظاهر على معنى واحد ، وإن بدت غير ذلك مثل تعدد الأقسام في أول السورة .

في ذلك يقول البقاعي في سورة الذاريات : « مقصودها : الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحًا وبشرت به تلويحًا ، ولاسيما آخرها من مصاب الدنيا وعذاب الآخرة ، واسمها (الذاريات) ظاهر في

---

(١) التحرير والتنوير ٨٢/٢٣ ، ٨٣ .

ذلك بملاحظة جواب القسم ، فإنه مع القسم لشدة الارتباط كالآية الواحدة وإن كان خمسًا »[1] .

وقد أظهر كلامه ـ رحمه الله ـ أن القسم رابطة قوية تعقد السورة اللاحقة بالسورة السابقة ، والنظر في عناصر القسم ـ ولاسيما المتعدد منه ـ يشير إلى ترابط آي السورة وشدة لحمتها . وسنقسم السورة إلى مطلع وخاتمة وفقرات بينهما ، وقبل ذلك نشير إلى المعنى إشارة موجزة تكشف عن جريانه في السورة .

(١) نظم الدرر ٢٦٩/٧ .

المعنى سلك ينتظم آي السورة الكريمة

المعنى في سورة الفجر هو ذلك المقصد الذي تدور من حوله آي السورة الكريمة ، ومطلع السورة وخاتمتها هما شاطئان تحرك المعنى بينهما . فكل آي السورة تدور حول إثبات الإياب والحساب .

فالمطلع يثبت الإياب بالعقل ، فالقسم بالفجر ينبه إلى استنتاج الإياب والبعث واليقين بوقوع ذلك ، ثم يثبته الحديث عن مصارع الغابرين بالواقع كما تدل شواهد التاريخ ، مع ملحظ مهم هو أن السورة لم تذكر من أحوالهم إلا ما يدل على عظمتهم ﴿ **ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ** ﴾ (الفجر:٨) ﴿ **ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ** ﴾ (الفجر:٩) ﴿ **وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ** ﴾ (الفجر:١٠) وهذا يدل على حضارتهم حتى لا يقال إن الله لا يعذب إلا توافه الأمم وحقيرها إن طغوا لأنه إذًا رب ضعيف ، وأتبع ذلك بما يدل على فسادهم وطغيانهم الذي أوجب تدميرهم تدميراً ، ألا ترى أن كل ذلك من آيات حساب الله للأمم الطاغية ، وكأن ذكر الأمم كان إثباتًا للحساب بالتصريح من بعد ما أشار إليه القسم بالفجر ، فإن الإياب إذا ثبت فالحساب ثابت أيضًا . أنت ترى أن المقصد يتحدر معك في الإثبات ، ثم انظر ما يقابل ذكر أحوال الغابرين من العظمة والطغيان ، وما عبر به ربنا عن تعذيبهم ﴿ **فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ** ﴾ (الفجر:١٣) ثم تلألأ المقصد ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ** ﴾ (الفجر:١٤) .

وعلاقة تقسيم الإنسان تجاه نعمة ربه بالمقصد (فأما الإنسان...) علاقة السبب بالمسبب، علاقة المقدمة بالنتيجة، من أسباب التعذيب عدم الشكر ،

عدم الرضا ، عدم إكرام اليتيم ، عدم الحض على طعام المسكين ، أكل الحرام وعدم التحري في جمع المال ، وهي بمثابة تعريجة في المعنى تربط الحاضر بالماضي ، وتذكر بعاقبة الإفساد في الأمم الماضية لتكون عبرة وعظة ومرآة لحاضر الناس ، وقد كان ما حدث بالأمم الغابرة جزءًا من حسابهم وعقابهم ، أما العقاب فهو في اليوم الأكبر .

وكان مطلع السورة إثباتًا للإياب والحساب بمنطق العقل ، وبما ينتهي إليه الإنسان بعد التدبر العميق في ظاهرة انفلاق النهار من الليل ودلالة ذلك على البعث ، وبتدبر أحوال الغابرين كيف بادوا ، إلى أين ذهبوا ، وأين هم ؟ إن من عنده أدنى عقل لابد أن ينتهي بعد هذه الرحلة إلى القناعة واليقين بالإياب والحساب ، فيرعوى عن كل ما يغضب ربه فيكرم اليتيم ويحض على طعام المسكين ... إلخ .

إن قوله تعالى : ﴿ **كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا** ﴾ (الفجر:٢١) يعانق الآيات الكريمات ﴿ **أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ (الفجر:٦) هذا تدمير وهذا تدمير ، هذا تدمير كبير وذاك التدمير الأكبر ، إن الماضي يؤيد الحاضر ، فتعد هذه الآية كالنتيجة لمثل قوله : ﴿ **أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ (الفجر:٦) ثم تأتي الآيات من بعد ذلك ناظرة إلى أول السورة وهي شرح للإياب والحساب من بعد ما أثبتهما المطلع ، وهنا يتعانق المطلع والخاتمة في التظاهر على معنى السورة ومقصدها الذي هو إثبات الإياب والحساب . وتقسم الخاتمة الإنسان إلى نادم ومطمئن بعد معاينة الإياب والوقوف على الحساب . كان المطلع إثباتًا وكانت الخاتمة شرحًا لما يحدث .

فإن تأملت في مطلع السورة وتابعت التأمل إلى نهايتها لقيك الإثبات أولاً ، والنتيجة ثانيًا ، وإن تأملت آخر السورة راجعًا إلى الأمام لقيك الحساب أولاً ، وأثبت المطلع لك وقوعه ثانيًا ، فأنت من حيث أتيت السورة في فقه معناها رأيتها تتظاهر على مقصد واحد ، ورأيت السلك الخفي (إثبات الإياب والحساب) ينتظم كل تراكيبها ، وربما يتجلى لك ذلك أكثر ـ إن شاء الله ـ بفقه تراكيب السورة .

التأمل البلاغي لمطلع السورة ومراقبة حركة المعنى

بينا في دراسة أخرى[1] أن مطلع السورة هو الجملة النحوية وتوابعها في أول السورة ، وعلى ذلك يكون مطلع سورة الفجر هو الجملة المكونة من القسم وجوابه . وقد اختلف الأئمة في تحديد جواب القسم ، فقد ذكر كثير منهم أن جواب القسم هو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ وأن ما بين القسم وجوابه معترض ، وجعلوا (هل) في قوله تعالى : ﴿ **هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ** ﴾ (الفجر:٥) بمعنى (بل) ، أي بل ذلك مقنع لذي حجر[2] . وعليه فمطلع السورة على رأيهم هو قوله تعالى : ﴿ **وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ (الفجر:١-١٤). ومنهم من ذهب إلى أن جواب القسم هو قوله تعالى : ﴿ **هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ** ﴾ (الفجر:٥) و(هل) عندهم للاستفهام التفخيمي التعظيمي للأمور المقسم بها ، وقد أبطل هذا الرأي السمين الحلبي ، وذكر مقاتل أن (هل) هنا في موضع (إن) ، وتقديره : إن

---

(١) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية ـ نظرية تطبيقية ، دكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، ١٤٤٠هـ (رسالة دكتوراه) .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٩٤/١٦ ، بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ٤٧٥/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٧٣٨٠/١٠ ، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٣١٤/٤ ، فتح القدير ٤٣٢/٥ .

في ذلك قسمًا لذي حجر ، قال السمين : « وهذا قول باطل ؛ لأنه لا يصلح أن يكون مقسمًا عليه على تقدير تسليم أن التركيب هكذا ، وإنما ذكرته للتنبيه على سقوطه »[1] .

وذهب جمهور المفسرين إلى أن جواب القسم محذوف تقديره (لنعذبن) دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (الفجر:٦) والاستفهام تقريري[2] ، ومنهم من ذهب إلى أنه محذوف والدليل عليه خاتمة السورة قبله حكاه الشهاب ، وذكره أبو حيان وضعفه الشوكاني[3] على أنه أبعد نظرًا في التقدير ، وأهدى سبيلاً في التقاط التناسب ، وألصق بمقصد السورة ومعناها الذي تتظاهر عليه . والظاهر أن القول بأن الجواب هو قوله : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ (الفجر:٥) قول مرفوض عند جمهور المفسرين ، والقولان الأخيران ، وهما القول بحذفه أو أنه هو قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ (الفجر:١٤)، قولان مقبولان يمكن الجمع بينهما، لأن ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ (الفجر:٦) دليل الجواب « إذ يدل على أن المقسم عليه من جنس ما فعل بهذه الأمم الثلاث ، وهو الاستئصال الدال عليه قوله : ﴿ فَصَبَّ ﴾ (الفجر:١٣) فتقدير الجواب : ليصبن ربك على مكذبيك سوط عذاب ، كما صب على عاد وثمود وفرعون ... وإما تمهيد للجواب ومقدمة له إن

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٣٠/٤ ، إعراب القرآن وبيانه محيي الدين الدرويش ٤٦٩/١٠ .

(٢) الكشاف ٢٥٠/٤ ، أنوار التنزيل للبيضاوي ٥٥٧/٢، إرشاد العقل السليم ١٥٤/٩، حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي ٦٥٦/٤ ، مفاتيح الغيب ٣٩٤/١٦ ، تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص٦١ ، السراج المنير للخطيب الشربيني ٣٠/٤ ، أضواء البيان ٢١٣/٩ ، ٢١٤ ، تفسير المراغي ١٤٢/٣٠ .

(٣) الفوائد المنسوب لابن القيم ص ٧١-٧٧ ، عناية القاضي ٣٥٧/٨ ، البحر المحيط ٤٦٨/٨ ، ٤٦٩ ، فتح القدير ٤٣٢/٥ .

جعلت الجواب قوله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ** ... ﴾ وما بينه وبين الآيات السابقة اعتراض جعل كمقدمة لجواب القسم ، والمعنى : إن ربك لبالمرصاد للمكذبين لا يخفى عليه أمرهم ... فهذه العبر جزئيات من مضمون جواب القسم ، فإن كان محذوفًا فذكرها دليله ، وإن كان الجواب قوله : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ كان تقديمها على الجواب زيادة في التشويق إلى تلقيه ؛ وإيذانًا بجنس الجواب من قبل ذكره ؛ ليحصل بعد ذكره مزيد تقرره في الأذهان»(1) هذا كلام ابن عاشور ـ رحمه الله ـ وكلامه جامع للرأيين كما ترى .

والذي أبصره أن الجواب هو قوله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ لأن الذكر هو الأصل ، ولا يصار إلى تقدير محذوف من غير المحذوفات المعروفة إلا إذا أعيتنا التراكيب ، والذكر الحكيم في أقسام يطيل في المقسم به في مواضع كثيرة ، وكثرة الاعتراضات بين القسم وجوابه . خذ سورة الشمس وسورة العاديات فإنك ترى الجواب في الأولى قوله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾ (الشمس:٩) وهي الآية التاسعة ، ولا أعلم أحدًا من المفسرين قال بحذف الجواب في هذا الموضع ، وكذلك جواب القسم في سورة العاديات هو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ** ﴾ (العاديات:٦) وهي الآية السادسة ، فما دام لحظ جواب القسم ممكنا في المذكور ، فهو أولى من الحذف ، ولا يعني هذا أن من قال بالحذف رأيه مرجوح ، لأن بناء الجمل في سورة الفجر يبيح الطريقين ، وللحذف نكاته وأسراره ، كما أن للذكر نكاته وأسراره .

---

(1) التحرير والتنوير ٣١٦/٣٠-٣١٨ .

ويمكن أن يكون بناء الجمل جاء على هذا النحو إثراء للتعبير وتكثيراً للمعاني ، فتكون الآيات من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ (الفجر:٦) إلى قوله : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ (الفجر:١٣) : توكيدًا لجواب القسم ، (ليعذبن أو لإلينا إيابهم وعلينا حسابهم) كما قال أبو حيان . وعلى كونه مذكوراً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر:١٤) يكون ما بين القسم وجوابه اعتراضًا يهيئ الذهن للجواب فيقع في النفس مؤكدًا أكمل توكيد وأحسنه . ففي كليهما ثراء للتعبير ، وتناولنا البلاغي للمطلع جار على أن الجواب مذكور .

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ (الفجر:١) ذكر العلماء أن المراد بالفجر النهار ، أو صلاة الصبح ، أو صلاة الفجر ، أو فجر الصبح ، والراجح أنه الفجر الصادق[(١)] ، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة:١٨٧) ، وتدل آية الإسراء على أن الفجر يكون بعد غسق الليل ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (الإسراء:٧٨)، ويوافقه قوله تعالى في المدثر ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ (المدثر:٣٤) وفي التكوير ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:١٨) .

---

(١) الكشاف ٢٩٤/٤ ، بحر العلوم ٤٧٥/٣ ، أنوار التنزيل ٥٥٦/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٥٣/٩ الجامع لأحكام القرآن ٧٣٧٦/١٠ ، ٧٣٧٧ ، التبيان ص ٢١، نظم الدرر ٤١٣/٨ ، جامع البيان ١٠٧/٣٠ ، ١٠٨ ، البحر المحيط ٤٦٨/٨ ، مفاتيح الغيب ٣٨٧/١٦ ، تفسير القرآن العظيم ٥٠٥/٤ ، الفتوحات الإلهية ٥٢٨/٤ ، فتح القدير ٤٣٢/٥ ، غرائب القرآن ٨٤/٣٠ ، التفسير البياني ١٢٦/٢ .

والقسم بالفجر بهذا المعنى يحضر إلى الذهن هذا الوقت المتكرر الوقوع «وهو وقت انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات في طلب الأرزاق، وذلك مشاكل لنشور الموتى، وفيه عبرة عظيمة لمن تأمل فيه، فإن الشيء إنما يقسم به إذا كان فيه فائدة دينية مثل كونه دليلاً باهرًا على التوحيد، أو على صحة البعث والجزاء ونحوهما، وفائدة دنيوية تحمل المكلف على شكر نعمة الله تعالى، ومجموعهما كالفجر، فإنه مشتمل على مجموع الفائدتين المذكورتين»[1]. أنت ترى أن السورة الكريمة من أول كلمة فيها تجمل المقصد وتعطيك خيط المعنى الأول بالحجة وبالإقناع، حتى تتأمل ظواهر الكون، فتبصر انسلاخ النهار من الليل الذي يشاكل حالة البعث، وهذه اللحظة لا توجد في غير الفجر، لذا لم يصلح القسم بسواه؛ لأنه لا يتلاءم مع مقصد السورة، ولا يلائم جريان المعنى فيها.

فمطلع السورة إذن هو منبع مقصدها، ومبتدأ مجرى معناها، وستبصر بعد ـ إن شاء الله ـ إشراق المطلع في آي السورة وتجاور مقاصدها.

والذين قالوا إن المراد بالفجر (صلاة الفجر) إما أن يكونوا قدروا مضافًا، وإما أن يكون من باب المجاز المرسل بعلاقة المحلية، حيث أطلق اسم المحل وأراد الحال[2]، والتركيب يتيح هذا وهما لا يتعاندان، وإنما يتعانقان في إثراء المعنى كما ذكرنا سلفًا. ويؤيدهم في مرادهم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ (الفجر:٣).

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٤/٦٥٤، مفاتيح الغيب ١٦/٣٨٧، التحرير والتنوير ٣٠/٣١٢، ٣١٣.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٤/٦٥٤.

وقد اختلفوا في اللام في ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ (الفجر:١) أهـي لام الجـنس أم لام العهد[١] ؟ فقد خصه بعضـهم بفجـر النحـر[٢] ، والـذين قـالوا هـذا أولـوا الليالي العشر ، بعشر ذي الحجة على أن الاعتبـار بحـال النـاس في الحـج يذكّر بالبعث والحساب ، فهـم خلعـوا كـل زينـة الحيـاة وخلفـوا أمـوالهم وذراريهم ، وهجروا كل متع الحياة ، وابتهلوا جميعًا إلى الله ، فاليوم أشـبه بيوم الحشر ، وهو ذروة التذكر بالنشـر في ظـاهرة انفـلاق الصـبح ، وذروة التذكر بالحشر في اجتماع الخلق . فهذا الرأي لا ينـافي رأي الجمهـور في أن اللام في ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ (الفجـــر:١) هـي لام الجـنس ، وأن المـراد جـنس الوقت .

فتخصيصه بيوم النحر يذكر بالمحشر ووقت الفجر نفسه يذكر بالنشر ، وفي كل حال ترى تأويلات علمائنـا لا تخـرج عـن تناسـب المعنـى مـع مقصد السـورة ، فكـل تـأويلاتهم تـدل علـى إبصـارهم أن القسـم بـالفجر استدلال للإياب . وكن على ذكر من أن القسم بالفجر لم يقع في غير هذه السورة الكريمة تناسبًا مع مقصدها ، ودليلاً على اختصاص السورة بمقصد لا تجـده في سـواها ، ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (الفجر:٢). ولم يقـع القسـم بالليـالي العشر في غير هذه السورة أيضًا لما ذكرناه لـك في القسـم بـالفجر ، وقـد اختلف العلماء في المراد بالليالي العشر على أقـوال ، منهـا أن المـراد بهـا عشر ذي الحجة ، والقائلون بـذلك لمـا رأوا أن تخصيصـها منـاف لتـنكير لفظ (وليال) ، قالوا : واستغنى عن تعريفها بتوصيفها بعشر ، وأنها جـاءت منكرة من بين ما أقسم بها ؛ لأنها لو وقعت بلام العهد لما انفهمت الفضيلة

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٨٧/١٦ ، غرائب القرآن ٨٤/٣٠ ، تفسير جزء عم للإمام محمـد عبده ص ٦٠ .

(٢) أضواء البيان ٢٠٩/٩ .

التي تستفاد من التنكير وهي التعظيم ، وعلتهم في تحديدها بأنها عشر ذي الحجة أنه ليس في ليال السنة عشر ليال متتابعة مثل عشر ذي الحجة[1]. وقد ذكر البقاعي وجهًا في تأويلها بعشر ذي الحجة هو أنها أعظم ليالي العام ، وهي آية الله على البعث بالقيام إلى إجابة داعي الله تعالى على هيئة الأموات[2] .

ومنها ما ذكر من أنها عشر رمضان ، أو عشر المحرم[3] ، وقد ذكر الإمام محمد عبده رأيًا جيدًا ، بعد أن ذكر أن اللام في (والفجر) لام الجنس قال في ليال عشر هي «ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مطاردًا لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ، ثم يسطع النهار ، ولا يزال الضوء إلى الليل ، وضوء الأهلة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبه ، ولما كانت هذه الليالي العشر غير متعينة في كل شهر ذكرها منكرة ، وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظلمة في أول ليلة من الشهر ، وقد يكون ضئيلاً يغيب ضوؤه في الشفق فلا يعد

(١) جامع البيان ٣٠/١٠٧ ، ١٠٨ ، مفاتيح الغيب ١٦/٣٨٨ ، حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي ٤/٦٥٤ ، ٦٥٥ ، التحرير والتنوير ٣٠/٣١٣ ، مسائل الرازي وأجوبتها / ٥٣٠ أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٢٥ ، ١٩٢٦ المحرر الوجيز ١٦/٢٩٣ .

(٢) نظم الدرر ٨/٤١٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٣٧٦ ، ٧٣٧٧ ، فتح القدير ٥/٤٣٢ ، غرائب القرآن ٣٠/٨٤ .

شيئًا ، فالليالي العشر تبتدئ تارة من أول ليلة ، وأخرى من الليلة الثانية ؛ لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر »[1] .

وهو رأي ناظر إلى الظاهرة الكونية فحسب ، وهي لا تغني عن نظرة من يحددها بعشر ذي الحجة ، لأن الأخيرة فيها عبرتان ، والأولى فيها عبرة واحدة . ويرى الأستاذ قطب أن نطلقها كما أطلقها القرآن الكريم[2] . والحق أن القرآن لم يطلقها ؛ لأن الوصف قد خصصها فتنصرف أول ما تنصرف إلى كل عشر حددها الشرع ، فمنهم من فهم أنه ـ سبحانه ـ يقسم بها لأفضليتها فحسب فجعلها عشر رمضان ، ومنهم من أفهم أنه ـ سبحانه ـ أقسم بها خاصة لفضلها وللعظة البالغة الواقعة فيها فجعلها عشر ذي الحجة ، وهو الألصق بمقصد السورة الكريمة .

لأن رأي الإمام محمد عبده ـ مع وجاهته ـ يشعر أن المراد ظاهرة تعاقب الليل والنهار فقط ، ومعنى هذا أنه يغني قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ (الفجر:٤) عن قوله ﴿ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ (الفجر:٢) كما سيأتي بعد ، والظاهر أن المراد الاعتبار بظاهرة التعاقب في أوقات نسمات العبادة فيها أرق ، والاتصال بالله فيها . أظهر هذا ما يوحي به التعبير وما يغمغم به السياق .

﴿ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ (الفجر:٣) اختلف العلماء في المراد بهما على أقوال : أولها : أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات ، والثاني : أن الوتر الخالق والشفع المخلوق ، وعلى هذا القول يكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق[3] .

---

(١) تفسير جزء عم ص ٦٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٣٩٠٣/٦ .
(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٣ ، أضواء البيان ٢١٠/٩ ، ٢١١ .

وقد ذكر الزمخشري أنهم أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه ، وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه[1] . وإكثارهم في تأويل معنى الشفع والوتر ، راجع إلى طبيعة دلالتهما اللغوية ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد ، فالمراد بالآية إما نفس العدد ، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع ووتر[2] . ومنهم من فسر الشفع والوتر بالعشر من ذي الحجة شفعها ووترها جريًا على سنة التناسب في التأويل ، وتجد عند المفسرين تفصيلات كثيرة جمعها ابن القيم بأن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات ، وتأويلات المفسرين لا تخرج عن هذا في الغالب[3] . وقد قصر الأستاذ سيد قطب المراد بالشفع والوتر على ما يعقب صلاة العشاء احتجاجًا بالحديث « ومن الصلاة الشفع والوتر »[4] .

وترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن النص لا يحتمل كل هذه التأويلات ، وأنه حسبنا من الشفع والوتر دلالتهما الصريحة لغة ونصًّا وسياقًا على الازدواج والإفراد ، مع ما نلحظه فيهما من التقابل والتضاد دون تكلف في تأويلهما بما يتجه بهما نحو التعظيم ، فإذا كانت الشعائر

---

(١) الكشاف ٢٤٩/٤ ، البحر المحيط ٤٦٨/٨ .

(٢) فتح القدير ٤٣٣/٥، المحرر الوجيز ٢٩٣/١٦، السراج المنير ٥٢٩/٤، ٥٣٠ .

(٣) جامع البيان ١٠٨/٣٠ ، ١٠٩ ، بحر العلوم ٤٧٥/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٧٣٧٨/١٠ ، ٧٣٧٩ ، تفسير القرآن العظيم ٥٠٦/٤ ، الفتوحات الإلهية ٥٢٩/٤ ، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٣١٤/٤ ، نظم الدرر ٤١٤/٨ ، مفاتيح الغيب ٣٩١/٦ ، ٣٩٢ ، غرائب القرآن ٨٤/٣٠ ، ٨٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٩٠٣/٦ .

المعظمة شفعًا ووترًا ، فكل الأشياء العظيم منها والحقير تحتمل أن تكون شفعًا ووترًا[1] . وهذا مبني على ما تجتهد في رده من إطباق العلماء على أن المقسم به معظم أبدًا ، فليس بلازم عندها أن يكون المقسم معظمًا ، وعند العلماء أن الله عظيم فلا يقسم إلا بعظيم ، وهو المتناسب مع دقة الصنعة في المخلوقات .

وهذا الاختلاف في تأويل الشفع والوتر وقع بسببين ، بسبب الدلالة اللغوية والدلالة السياقية ، واختلافهم في هذا الموضع تابع لاختلافهم في المراد بالفجر والليالي العشر ، فقد جعلوا تعريف الشفع والوتر مشيرًا إلى أن الليالي العشر معينة ، وأن تعريفهما أيضًا مؤذن بأنهما من الليالي العشر[2] .

وقد قال بعضهم : الشفع : اليومان اللذان بعد يوم النحر ، والوتر : هو اليوم الثالث[3] ، وإنما قالوا هذا فرارًا من التكرار ؛ لأن القائلين بهذا يقولون : إن المراد بالشفع والوتر شفع ووتر الليالي العشر .

وقال آخرون : الشفع : العيون الاثنتا عشرة التي فجرها الله تعالى من حجر موسى ـ عليه السلام ـ للأسباط ، والوتر : الآيات التسع المذكورة بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ (الإسراء:١٠١). [4] وهذا التأويل ـ على وجاهته ـ أبعد من هذا السياق ، والذي أبصره أن هنا محذوفًا تقديره : (وقت) ، لأن تحدر السياق وبناء الكلام يدلان على هذا

(١) التفسير البياني ١٣٢/٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣١٥/٣٠.

(٣) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٥/٤ وتفسير المراغي ١٤١/٣٠ .

(٤) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٥/٤ .

ويلزمان به ، بالرغم مما ذكره علماؤنا ، فإن القسم بالفجر يفسر حالة الاستدلال على الإياب ، وجاء القسم من بعد ذلك تأكيدًا للاستدلال على الإياب بقوله ﴿ **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ (الفجر:٢) كما سبق بيانه ، وقوله ﴿ **وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ** ﴾ (الفجر:٣) تأكيد للإياب بطريق آخر ، إذ بعد الشفع والوتر يكون النوم وتنتهي أعمال المكلفين ، والنوم أشبه شيء بالموت كما ذكرنا ، وهو غير متكرر عند أي أحد ، ويرشح لما ذكرناه قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ (الفجر:٤) ألا تلحظ ترتب الوقت ، فإنه لما ذكر ما يشبه الإياب والحشر ذكر ما يشبه الموت بذكر زمانه ، فتعاطف الأقسام يبرز المعنى ويؤكده . هذا ما أبصرته في علاقة التجاور ولُحْمة التناسب ، وقد قدم الذكر الحكيم ما هو أولى بالاحتجاج وهو الإياب ، على ما لم يحتج إلى احتجاج وهو الموت ؛ لذا جاء على هيئة حجة مساندة للحجة الأولى في الاستدلال على الإياب بالقسم بالفجر ، وربما يرشح لذلك أن كل هذه الأقسام من خصائص السورة الكريمة ، وأكاد أجزم أن ما تختص السورة به من ألفاظ وتراكيب وموضوعات هي معالم دالة على مقصد السورة ؛ لذا رأيت هذه الأقسام جاءت متتابعة من أول السورة الكريمة ، إلماعًا إلى أن مفتتح السورة يجمل مقصدها ، ويوجز معناها ، وتبصر نوره في سائر تراكيب السورة الكريمة . كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

ولا يغيب عنك ما يوحي به الشفع والوتر من دلالة على قدرة الله ـ عز وعلا ـ الذي غيب ضوء الشمس من بعد ما كانت تملأ الدنيا ، ولا نستطيع أن نتناسى الدلالة اللغوية لهاتين الكلمتين من دلالتهما على المخلوقات والمأمورات شفعها ووترها ، فذلك يدل على كمال قدرته ـ عز وعلا ـ وقوة قهره وغلبته للعاصين ، وسعة رحمته للمطيعين .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ (الفجر:٤) وترى نور الترتيب والتتابع الذي ذكرته لك في هذا القسم أيضًا ، وقد ورد القسم بالليل في سور أخرى غير أنك لا تراه مقيدًا بهذا القيد ﴿ إِذَا يَسۡرِ ﴾ (الفجر:٤) وإنما ترى قيودًا أخرى تتناسب مع مقاصد السور التي وردت فيها ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ (الليل:١) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ (التكوير:١٧) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ (المدثر:٣٣) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ (الشمس:٤) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحى:٢) ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق:١٧) .

هذا ما ذكرته لك من أن المعاني المشتركة الواردة في السورة يضفي عليها السياق ما يجعلها مختصة بالسورة لا تستطيع أن تغير موقعها ، لأنها تأتي مكسوة بروح معناها وسريان مقصدها . حتى التوافق في الخط وفي النطق تراه واضحًا في مثل هذه الآية الكريمة . ترى ذلك في حذف الياء من (يسر) مع أن إثباتها هو الأصل ؛ لأنها لام فعل مضارع مرفوع ؛ لذا أثبتها وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ، وأثبتها في الحالين ابن كثير ويعقوب ، وحذفها الباقون موافقة لخط المصحف الكريم ورؤوس الآي[1] .

وقد روى البقاعي أن المؤرج سأل الأخفش عن علة حذف الياء ، فقال : اخدمني سنة ، فسأله بعد سنة فقال : «الليل يُسرى فيه ولا يسري ، فعدل به عن معناه ، فوجب أن يعدل عن لفظه»[2]. مع إجلالنا لعلمائنا فهذا غير مقبول ، لأنه إذا صدق هذا في الفعل المعتل الآخر ، فكيف نصنع في الصحيح الآخر (أدبر) (عسعس)؟ بل وماذا نصنع فيما جاء معتل الآخر وثبتت ياؤه (يغشى) وهو من المجاز كما قال الأخفش؟ وقد ذكر

(١) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢/٦٠٧.
(٢) نظم الدرر ٨/٤١٤.

ابن العربي قصة الأخفش ومؤرج ثم قال : « فعجبت من هذا كجواب المقصر من غير مبصر ، فقال لي بعض أشياخي : تمامه في بيانه أن ذلك لفقه هو أن الحذف يدل على الحذف وهو مثل الأول »[1] ولعله يريد أن الحذف يدل على جزء قليل من السرى ، فالله أعلم .

وقد ذكروا أن السرى السير أول الليل وأوسطه وآخره[2] ، والإقسام بالشفع والوتر يمنع أن يكون السرى هنا أول الليل ، ففائدة الإقسام هنا مرتكزة في القيد (إذا يسر) ، وهو تعبير زاخر، لأن نسبة السرى إلى الليل مجاز والمراد « يُسرى فيه » أي مجاز عقلي علاقته الزمانية ، قاله السمين . والظاهر عند الشهاب أنه مجاز مرسل أو استعارة . وكلام الشهاب جاء جاريًا على عادة العرب ، فقد استعملت العرب سرى في المعاني ؛ تشبيهًا لها بالأجسام مجازًا واتساعًا ، وإسناد الفعل إلى المعنى كثير في كلامهم نحو طاف الخيال[3] .

وهذا القيد له إيحاءات كثيرة ، منها تذكير السارين في الليل بنعمة الله عليهم إذ وقاهم حر الشمس ، ومجيئه على طريقة المجاز جعل الليل يبدو أمامنا مخلوقًا حيًّا يسري في الكون كله ، كأنه ساهر يجتاب الظلام ، وغير ذلك كثير .

والذي يعنينا هنا هو التلاؤم بين هذا القسم وبين السياق الذي غرس فيه ، والذي أراه أن مجيء هذا القيد في القسم ، جعل القسم مقصورًا على الليل في وقت محدد يمكننا أن نقول هو الوقت الذي بين الشفع والوتر

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٩٢٩/٤ .

(٢) المصباح المنير (س ر ى) .

(٣) الفتوحات الإلهية ٥٢٩/٤ .

والفجر ، وهذا ما يكون الإنسان فيه حال نومه أشبه شيء بالميت ؛ لأنه وقت السكون والهدوء والاستغراق ، وحين تجول أنت مكانًا في هذا الوقت تخال أنك في بنيان دون سكان ، لا تسمع حركة ولا صوتًا ، ولا تبصر أحدًا وكأنك بين القبور . وأنت تبصر هذا الذي قلته لك في كلام الأئمة .

كشف جار الله عن طريقة الترتيب في الأقسام بقوله : « وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة ، أقسم بالليل على العموم »[1] وقد ذكرت قبل ذلك علة القسم بليال مخصوصة ، وقول جار الله هذا يفتح بابًا في فقه السورة ، فكأن القسم بالليل على العموم تمهيد لما سيأتي بعد من فتح باب العظة من أحوال الغابرين من الأمم ، من بعد القسم بالليالي المخصوصة التي تخص المؤمنين في الاتعاظ .

وقد علل القاضي البيضاوي لهذا القيد (إذا يسر) فقال : « والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة » وعلق الشيخ زادة على قوله فقال : « فإن أصل الدلالة عليهما تحصل بمجرد ذكر الليل بدون التعرض لانقضائه بظهور ضوء النهار ، وذلك لأن سلخ ضوء النهار من الليل ، وإدخال الخلق تحت لباس الظلام بغروب الشمس ، آية دالة على كمال القدرة ، وفيه أيضًا نعمة جليلة للناس حيث يستترون بظلمة الليل ، ويستريحون بالنوم ، وبالتعرض لانقضاء الليل وتعاقب النهار عليه تقوى تلك الدلالة ، فإن آية الليل إذا محيت مع كونها محيطة بجميع أقطار العالم بانبساط آية النهار وشيوعها ، وتجدد البرهان القاطع الدال على كمال القدرة والإحسان الشامل لجميع الحيوانات ؛ لأنهم يصيرون بذلك كأنهم أعيد لهم الحياة بعد الموت » ثم أجاب عن شبهة « فإن قيل :

(١) الكشاف ٤/٢٤٩ .

القسم بالليل إذا يسر يغني عن القسم بليال عشر ، قلنا المقسم به في قوله : (والليل إذا يسر) هو الليل باعتبار مسيره ومضيه ، وفي قوله : (وليال عشر). هو الليالي بلا اعتبار مضيها بل باعتبار خصوصية أخرى ، فلا يغني أحدهما عن الآخر »[1] ، وقد ذكر ابن عاشور أيضًا أنه قيد الليل بظرف (إذا يسر) لأنه وقت تمكن ظلمة الليل[2].

وقد رجع آخر القسم إلى أوله ، وقد جاءا على ما يشبه التضاد ؛ لأن الذي يضاد الليل هو النهار ؛ حتى يظهر عند القارئ والمستمع ما يشبه البعث وما يشبه الموت ويذكر به ، وإظهاراً للقدرة التي جعلت الأضداد في خدمة الكون والإنسان ، وهذا التقابل جعل ابن كثير يقول : « ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل ، وقد يقال إن هذا أنسب ؛ لأنه في مقابلة قوله (والفجر) فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله (والليل إذا يسر) على إقباله كان قسمًا بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس »[3] غير أن (سرى) لم تستعمل بمعنى سار ، والمقابلة لا تحتاج إلى كل هذا .

وفي ختم القسم بـ ﴿ **وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ** ﴾ دلالة عقلية على الشبه بين الموت والقوم ، وابتداؤه بالفجر فيه دلالة على البعث والإياب ، وكلاهما دلالة عقلية واضحة على الإياب ، وإذا ما ثبت الإياب ثبت الحساب ، لأنه لابد للإياب من علة . هذا بناء القسم وهذه لغته ، وقد رأيت الأقسام تتآخى في إثبات الإياب وتتظاهر كلماتها على ذلك . وفي الذكر الحكيم آيات كثيرة

(١) أنوار التنزيل ٢/٥٥٧ ، حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي ٤/٦٥٥ ، إرشاد العقل السليم ٩/١٥٣ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٧ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٠٦ .

تدلل على البعث بـاختلاف الليـل والنهـار[1] ، ولمـا كانـت هـذه حججًـا ظاهرة ، وآيات باهرة على قدرة الله علـى الإيـاب ، أكـد الحـق ـ تعـالى ـ للمقسم عليه بقوله بعد ذلك .

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ (الفجر:٥) قال علماؤنا : فـإن قيـل : فمـا فائدة قوله تعالى : ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ (الفجر:٥) بعـد أن أقسـم بالأشياء المذكورة ؟ قلنا : هي زيادة التأكيد والتحقيق للمقسم عليه ، كمـن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟! وقد ذكروا أن الاستفهام هنا (هل) استفهام إنكاري للقسم نفسه[2] أو أن الاستفهام للتقرير[3] « أي : إن في ذلك قسمًا لذي لب وعقل . إن في ذلك مقنعًا لمن له إدراك وفكر ، ولكن صيغة الاستفهام ـ مع إفادتها التقرير ـ أرق حاشية »[4] وعلـل ابـن عاشـور لإفادتها التقرير بأن أصل (هـل) أن تـدل علـى التحقيـق ؛ إذ هـي بمعنـى (قد)[5]، وقد جاء باسم الإشارة الموضوع للبعد تعظيمًا له ، وقـدم المسـند (في ذلك) إلماعًا إلى تعظيمه وأنه خليق بالعظة والعـبرة ، وأخـر المسنـد إليه ونكره تعظيمًا له ؛ لذا قال علماؤنا في اسم الإشارة « وأيا ما من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه ، وبعد منزلته في الفضل والشرف »[6].

---

(١) من ذلـك مـثلاً البقـرة ١٦٤ ، آل عمـران ٢٧ ، ١٩٠ ، الأنعـام ٦٠ ، الحـج ٦١ ، المؤمنون ٨٠ ، النور ٤٤ ، الفرقان ٤٧ ، ٦٢ ، لقمان ٢٦ ، فاطر ١٣ ، يس ٣٧ ، الزمر ٥ ، المديد ٦ ، النازعات ٢٩ .

(٢) حاشية الشيخ زادة ٦٥٦/٤ ، عناية القاضي وكفايـة الراضـي ٣٥٧/٨ ، الفتوحـات الإلهية ٥٢٩/٤ .

(٣) إعراب القرآن وبيانه ٤٦٨/١٠ ، البحر المحيط ٤٦٩/٨ ، تفسير جزء عم ص٦١ ، فتح القدير ٤٣٤/٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٩٠٣/٦ ، تفسير المراغي ١٤٢/٣٠ .

(٥) التحرير والتنوير ٣١٧/٣٠ .

(٦) الفتوحات الإلهية ٥٢٩/٤ ، ٥٣٠ .

وقد ألمع إلى قوة الحجة وظهورها بقوله (لذي حجر) فلم يقل (لذي عقل) ولا (لذي لب) أو غيره ، وإنما جاء بهذا اللفظ كشفًا عن أن الحجج الماضية ، ظاهرة لمن عنده أدنى عقل ، وأدنى مانع له من اتباع هوى النفس فيما لا ينبغي .

فقد ظهرت علاقة هذه الآية الكريمة بمعنى السورة ، ومكانتها من حركة المعنى فيها ، وهي بمثابة معبر وواسطة عقد بين الحجج الأولى والحجج الثانية ، فمن لم يعتبر بالإياب ناظرًا إلى ظاهرة التعاقب ، فليعرج على أحوال الغابرين العتاة المتجبرين ، وليكن عنده في ذلك أدنى درجات العقل ، فهذه الآية تحقيق وتقرير لفخامة الأمور المقسم بها ، وتوكيد لما أقسم عليه أيضًا . تأمل قول الزمخشري : «أي : هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه؟»[١] ترى فيه كل ذلك ، مع ملحظ مهم هو أن هذا التركيب لم يقع في غير هذه السورة ، فهو من المعالم الدالة على مقصد السورة .

وحسبك هنا قول ابن الزبير : «ابتدأ ـ سبحانه ـ لمن تقدم ذكره وجهًا آخر من الاعتبار ، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم ، وما أعقبهم تكذيبهم واجترائهم فقال : (ألم تر كيف...)[٢]» فهو وجه آخر من الحجج عند ابن الزبير ، والذي أبصره أنه استدلال لقدرة الله على الحساب .

---

(١) الكشاف ٢٤٩/٤ .

(٢) نظم الدرر ٤١٥/٨ .

قصص النبيين وعلاقته بحركة المعنى

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ (الفجر:٦-٨) الحلقات الواردة هنا في قصص النبيين ، فيها خصائص لم ترد في غير هذه السورة ، بالرغم من قصرها ، فهي تلخيص دقيق لأبرز حضارتهم وتدميرهم تناسبًا مع مقصد السورة ومعناها ، وقد صدرت بالاستفهام التقريري[(١)] ، وفي ذلك إثارة لليقظة ، وتنشيط للحس ، وهي من الخطاب الخاص الذي أريد به العام ، وقد أوردت السورة أقوى الغابرين جبروتًا ، وأعتاهم طغيانًا ، وأكثرهم إفسادًا ، وذلك أعلق بمعنى السورة الكريمة وروح معناها .

والرؤية هنا ليست هي الرؤية البصرية ، لأنه ﷺ لم ير ببصره ، فقد نزل الذكر الحكيم الرؤية العلمية منزلة الرؤية البصرية[(٢)] ، إشارة إلى أن التواتر المنقول يورث العلم الضروري فصار المعلوم بمنزلة المبصر المشاهد ، وهي دعوة للتأمل والنظر في آثارهم طلبًا للعظة ، لذا لم يرد في قصة عاد في الذكر الحكيم كله هذا التعبير ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ﴾ وتوحي (كيف) هنا بوجوب سعة التأمل ، وتدقيق التدبر ، لإبصار كيفية إهلاك هؤلاء العتاة على الرغم مما أوتوا .

وإضافة الفعل إلى ﴿ رَبُّكَ ﴾ فيها للمؤمنين طمأنينة وأنس وراحة[(٣)] ،

---

(١) بحر العلوم ٤٧٦/٣، تفسير جزء عم ص٦١، التحرير والتنوير ٣١٧/٣٠ .
(٢) إرشاد العقل السليم ١٥٥/٩، الفتوحات الإلهية ٥٣١/٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٣٩٠٣/٦ .

وهـي ألصق بحـال مـن يعانون مـن ظلم الطغاة وعـتـو الجبارين . وقولـه ﴿ بِعَادٍ ﴾ فيه مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث عبر بالجزء وأراد الكل ، إذ هو رأس الطاغين وسيد الجبارين ، وهو الذي قادهم إلى العنـاد ، وأعـانهم على الكفر فله بذلك مزيد اختصاص في الفساد ومزيد عنايـة في الكفـر ، وفيه إيحاء بقدرة الله وقهره وغلبته ، وأن من آيات قوتـه التوجـه إلى رأس الجبارين بالعذاب ، فهو الذي يُحَاسِـب ولا يُحَاسَـب ، وهـو الـذي يعـذب وينعم . هذا إذا ذهبنا إلى المجاز في التعبير . وقد ذكـروا أن المـراد أولاد عاد[١] ، وعلى هذا فلا مجاز في الكلام ، ويؤيده مـا روى عـن الحسـن أن (بعاد) بفتح الدال غير مصروف بمعنى القبيلـة[٢] ، غـير أن اعتبـار المجـاز ألصق بهذا السياق الذي يتظاهر على الكشف عن قهر الله الظـالمين . ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ (إرم) عطف بيان[٣] فيه زيادة تعريف بهم ، وكشـف عـن أن المراد بهم عاد الأولى ، وقد كانوا أشد أهل زمانهم خلقة ، وأقواهم بطشًا ، وقد ذهب كثير من المفسرين إلى تشبيه قامـاتهم بالأعمـدة[٤] كمـا حكـى الذكر الحكـيم عـنهم ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (فصلت:١٥) وقيل : (إرم) بلدتهم وأرضهم الـتي كـانوا بهـا ، وعلى الأقوال ففي ذلك زيادة تعريف بهم ، تناسبًا مـع مـا يجـري السـياق على لاحبه من الأمر بالتدبر والنظر في أحـوال الغـابرين وديـارهم اعتبـارا واتعاظًا ، ويتسق مع ما يأتي من العناية بذكر ما هو خاص بهم ، وما كان

---

(١) الكشاف ٢٥٠/٤ ، أنوار التنزيل ٦٥٦/٤ ، فتح القدير ٤٣٤/٥ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ٦٠٨/٢ .

(٣) الكشاف ٢٥٠/٤ ، فتح القدير ٤٣٤/٥ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٧/٤ ، ٥٠٨ .

(٤) الكشاف ٢٥٠/٤ ، إرشاد العقل السليم ١٥٥/٩ ، السراج المنير ٥٣٠/٤ .

محط تفاخرهم وتباهيهم . ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ (الفجر:٧) فقد ذكروا أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد ، فملكا دهرًا ثم مات شديد ، فخلص الأمر لشداد ، وملك المعمورة ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فبنى على مثلها في بعض صحاري عدن جنة وسماها (إرم)[1] ، واعلم أن هذه الألفاظ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ (الفجر:٧) لم ترد في قصة عاد قوم هود في الذكر الحكيم إلا هنا ، وهذا ما ذكرته لك من أن قصص النبيين على كثرتها ترى لكل سورة اختصاصات لا تجدها في غيرها ؛ تناسبًا مع المعنى ، وتناغمًا مع المقصد ، والتناسب هنا يظهر مقصد السورة (الاستدلال على الإياب والحساب) إذ تتوجه العناية هنا إلى محط تفاخرهم كما ذكرت ، وفيه كشف عن مدى قوتهم ، ومدى قدرة الله ـ عز وعلا ـ الذي حاسبهم في الدنيا على جبروتهم . ويصعد الذكر الحكيم بيانه في الكشف عن هذا بهذه الصفة التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وماذا لو قلنا هنا (المنفردة في الإبداع) أو غير ذلك من التعبيرات ؟ ما من ريب أن المعنى سينطفئ ، لأن التعبير باسم الموصول هنا اقتضى ذكر جملة صلة اكتنزت من المعاني والإيحاءات الكثير ، تأمل من ذلك استخدام أداة الجزم التي أفادت إظهار تمام تفردهم ، وقال (يخلق) ، ولم يقل : يبدع ولا ينشأ ، ولا يصنع ... إلى آخره من التعبيرات الممكنة ، لأن هذا التعبير ينفي تمامًا أن يكونوا مسبوقين بمحاولة كمحاولتهم ، ويؤيد ذلك نائب الفاعل (مثلها) فنفي المثل أبلغ من نفي حقيقة الشيء ، لأن انتفاء المثيل آكد من انتفاء الشيء ذاته ، ثم تأمل التعميم (في البلاد) فقد أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين ، وهذا أظهر لقدرتهم ، وأظهر لقدرة الله عليهم ، ولم يذكر الله هنا كيفية

---

(١) أنوار التنزيل ٤/٦٥٦ .

عـذابهم مـع أنهـا محـط الفائـدة في هـذا السـياق ؛ إمعانًـا في الاحتجـاج ، واكتفاء بما ينتهي إليه نظر الباصر في ديـارهم وأحـوالهم ، وثقـة بالحجـة المسوقة ، كما تقول لصاحبك : ألم تر كيف فعلت بفـلان ؟ اعتمـادًا علـى أن فعلك به ظـاهر لكـي ذي بصـر ، فـلا يقـول ذلـك إلا واثـق مطمـئن ، والسياق لبيان قدرة الله على الحساب ، فصيغت الجمل على هيئـة تكشـف ظهور الحجة ووضوحها . فالآثار لا تكذب ، وهي باقية على مر العصـور تنادي على قدرة الله على الحساب .

وقد ذكر علماؤنا أن الضـمير في (مثلـها) ، إمـا أن يعـود إلى القبيلـة ، فيكون المعنى : التي لم يخلق مثل تلك القبيلة في القـوة وطـول عمرهـا ، وإما أن يعود إلى المدينة (إرم) فيكون المعنى : التي لم يخلق مثـل مدينـة شداد في جميع بـلاد الـدنيا[1] ، وكـلٌّ مـراد ، وهـذا مـن اكتنـازات التعـبير القرآني لمعان كثيرة بألفاظ قليلة . وكن على ذكر من أن هذه الصفة (التي لم يخلق مثلها في الـبلاد) لم تقـع في قصـة عـاد قـوم هـود في غـير هـذا الموضع في الذكر الحكيم .

فهي من المعالم الـتي تنـادي علـى اختصـاص السـورة بمقصـد معـين ، وتنادي على ما ذكـرت لـك مـن أن الحلقـات الـواردة في كـل سـورة مـن قصص النبيين تتشكل بروح السورة ، وتتسم بسيما مقصدها .

ويؤيد ذلك ما تراه في قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ** ﴾ (الفجر:٩) وقد وردت تراكيب في القصة تقاربها في الذكر الحكيم ، مثل قوله تعالى في ثمود قوم صالح ﴿ **وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا** ﴾ (الأعراف:٧٤) وقوله : ﴿ **وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ** ﴾ (الحجر:٨٢) ، وقـولـه

(١) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٤/٦٥٦ .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ (الشعراء:١٤٩) وهي تراكيب تتناسب مع سياقاتها ومقاصد سورها ، والتركيب الذي معنا في هذه السورة الكريمة ـ كما قلت لك سلفًا ـ يولي إبراز محط تفاخر ثمود كل عناية ، ألست معي أن هناك فرقًا كبيرًا بين (تنحتون) و(جابوا) فليس في النحت ما في الجوب ، إذ الجوب هو القطع ، وهو يستعمل في قطع كل أرض ، وجواب الكلام هو ما يقطع الجوب ، فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع كما قال الراغب وأصحاب المعاجم[1] .

ففي هذا التعبير من القوة ما ليس في النحت ، وفيه إبراز لقوتهم وشدتهم ، وفيه إظهار لقدرة الله ـ عز وعلا ـ عليهم ، وهو الأنسب بمقصد السورة وبعنصر الاستدلال على الحساب ، وحذف من التعبير ما يبين كيفية عذابهم ؛ للنكتة التي ذكرتها لك في تحليل حديث القرآن عن عاد قوم هود ، ثم تأمل كيف جاء بالمفعول به معرفًا بالألف واللام ؛ إظهارًا لتمكنهم من هذه الصنعة وكشفًا عن عظم قوتهم ، ولا تجد لفظ (جابوا) في الذكر الحكيم كله في غير هذا الموضوع ، تناسبًا مع السياق الذي يتظاهر على إبراز قدرة الله على الحساب .

وقوله (بالواد) دون تحديد ، إشارة إلى أن أمر آثارهم فوق أن يحدد لذيوع اشتهاره ، وفي كل ذلك إبراز لقوة الحجة .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ (الفجر:١٠) قال البقاعي كاشفًا عن المناسبة «ولما بدأ بهؤلاء لأن أمرهم كان أعجب ... ثنى بأقرب الأمم إليهم زمانًا ، وأشبههم بهم شأنًا ... ولما ذكر القبيلتين من العرب ذكر بعض من

(١) المفردات للراغب والمصباح ومختار الصحاح والمعجم الوسيط ولسان العرب مادة (جوب) .

جاورهم من طغاة العجم ، لما في قصتهم من العتو والجبروت ، مع ما حوته من الغرائب وخوارق العجائب ، لاسيما في القدرة على البعث بقلب العصا حية ، وإعادتها جماداً مع التكرار »[1] .

وهذا كشف رائع عن علة التناسب في الجمع بين هذه القصص ، واصطفائها دون القصص الوارد في الذكر الحكيم كله ؛ لاختصاصها بمزيد دلالة على قدرة الله على الحساب ، بما أورده من الحديث عن قوم ذوي اختصاص زائد دون بقية الأمم بمزيد إنعام وعظيم قوة وفائق جبروت .

وقد تأول العلماء معنى (ذي الأوتاد) على وجوه ، منها أن المراد بالأوتاد الأهرام أو الجنود والعسكر والجنات والعيون[2] ، ويرى المراغي أن تشبيه الأهرام[3] بالأوتاد رائع ؛ لأن الأهرام تشبه الأوتاد المقلوبة[4] . والتناسب الذي تسير السورة على لاحبه يرجح المعنى الأول ، إذ الاعتبار في القصتين الماضيتين فيه كبير عناية بما خلفوا من آثار ، وقد ورد هذا في سورة (ص) فقط ﴿ **كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ** ﴾ (ص:١٢) وورد تشبيه الجبال بالأوتاد في موضع واحد ﴿ **وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا** ﴾ (النبأ:٧) فالأهرامات عند فرعون هي دليل العظمة وآية الجبروت ، وشخوصها الآن أمام الأعين آية على قدرة الله على هؤلاء الجبارين .

وقد قال برهان الدين البقاعي في تفسير (ذي الأوتاد) : أي الذي ثبت ملكه تثبيت من يظن أنه لا يزول بالعساكر والجنود وغيرهم ، من كل

---

(١) نظم الدرر ٨/٤١٥ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٠٤ ، التحرير والتنوير ٣٠/٣٢١ .
(٣) الكشاف ٤/٢٥٠ ، أضواء البيان ٩/٢١٥ ، ٢١٦ ، السراج المنير ٤/٥٣١ .
(٤) تفسير المراغي ٣٠/١٤٤ .

ما يظن أنه يشد أمره من الجنات والعيون ، ثم علل لهذا التركيب بقوله : « ولما كان المراد بفرعون هو وجنوده ، لأن الرأس يكنى به عن البدن ، لأنه جماعه وبه قوامه ، وصفه بوصف يجمع قومه »[1]. وكلامه ظاهر في أن في الكلام استعارة ، وهو ما صرح به العلماء عند تفسير آية سورة (ص) فقد ذكر البيضاوي ـ رحمه الله ـ أن (ذو الأوتاد) ذو الملك الثابت بالأوتاد ، قال الشيخ زادة : « يريد أن أصل ذو الأوتاد أن يستعمل في ثبات الخيمة ... ثم استعير لثبات العز والملك ، وفرعون الذي ثبت ملكه ، واستحكم بالأوتاد ، شبه ملكه بالبيت المطنب استعارة بالكناية ، وأثبت له الأوتاد تخييلاً ، وإن أريد بالأوتاد جموعه تكون استعارة تصريحية »[2].

وهناك تأويل آخر للأوتاد على حقيقتها على اعتبار ما كان يصنع في تعذيب المؤمنين بالأوتاد ، لكن الألصق بالسياق هو اعتبار المراد بالأوتاد ، وما ترك من الآثار اتعاظًا واعتبارًا ، ويؤيده ما يردد اليوم من عجز العالم عن مثل هذه الحضارة ـ الأهرامات وغيرها ـ فقد رسخ في الأذهان قوة هؤلاء الفراعنة وتقدمهم ، وغاب عن غير المؤمنين ما تذكر به هذه الآثار من قدرة الله عليهم إذ كفروا وعتوا وطغوا ، ولعل مما يرشح لذلك قوله تعالى : ﴿ **فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً** ﴾ (يونس:٩٢) .

﴿ **ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾ (الفجر:١١-١٣) جاء هذا الوصف للمذكورين جميعًا ، ومن أجل ذلك جاء بالاسم الموصول ، وفي ذلك إتاحة لذكر جملة الصلة التي تكشف عن سبب تعذيبهم ، وآثر الطغيان كشفًا عن تغلغل فسادهم في كل

---

(١) نظم الدرر ٤١٦/١ .

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة ١٧٥/٤ .

أنحاء بلادهم ، والطغيان هو مجاوزة الحد في العصيان ، وجاءت الجملة بعدها معطوفة بفاء التعقيب ؛ إيماء إلى أن فسادهم لاحق طغيانهم دون مهلة ، وهذا كاشف عن إصرارهم البالغ ، ثم تأمل ما يكشف عنه حرف الوعاء (في) في قوله (في البلاد) من تغلغل الفساد والطغيان في بلادهم واستشرائه وعمومه .

عقاب الأمم الغابرة وعلاقته بحركة المعنى

ثم جاءت آية شاملة كل أنواع العقاب ، وصور لك تعاقب الفاءين قوة أخذ الله لهم ، وشدة قهره لهم ؛ تناسبًا مع قبيح صنيعهم ، وكشفًا عن عموم هذا العذاب وتغطيته كل جزء من بلادهم ؛ لذا كانت الاستعارة هي الطريقة الألصق بهذا السياق ، ولم ترد كلمة (سوط) في غير هذه السورة الكريمة تناسبًا مع هذا السياق ، فقد عبر عن إنزال العذاب بهم بالصب «للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه ، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع ، أو جار مجراه في السيلان كالرمل والحبوب ، وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار»[1] ففي هذا التعبير استعارة مكنية ، فقد استعمل الصب ، وهو خاص بالماء ؛ لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب[2] .

أنت تحس أن هذه الاستعارة صورت تمام إحاطتهم بالعذاب ، وإظهار قهر الله وجبروته ، وهو ما يتناسب مع مقصد السورة الذي هو الاستدلال على الإياب والحساب .

و(السوط) لفظ شاع استعماله في الجلد المضفور الذي يضرب به ، وإن كان في الأصل اسمًا للخلط والمزج ، فيمكن أن يكون في السوط استعارة ، شبه ما خلط لهم من أنواع العذاب بالسوط في التخالط والتضافر

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٩/١٥٥ ، ١٥٦ ، التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٢ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ١٠/٤٧١ ، مفاتيح الغيب ١٢٦/٣٩٩ ، غرائب القرآن ١٢/٨١ .

« وإنما خص السوط بأن يستعار للعذاب ؛ لأنه يقتضي من التكرار والتردد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره »[1]. والتعبير ـ كما ترى ـ « يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب ، حيث يجتمع الألم اللاذع ، والغمرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد[2] » ثم تأمل ما تفيض به هذه الكلمة (ربك) من الطمأنينة وتمام حماية الله لأوليائه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر:١٤) هذا جواب القسم على ما رجحته قبل ذلك ، وهذا التركيب من خصائص هذه السورة الكريمة ، و(الإرصاد) و(الرصد) ذكرا في مواضع[3] أخر من الذكر الحكيم ، إلا أن الإسناد فيها ليس لله عز وعلا .

وهذا التركيب مع أنه يفيض بالتهديد والوعيد للكافرين ، فهو يفيض طمأنينة للمؤمنين ، فهو راصد لا يفوته شيء ، فليهدأ بال المؤمن ولينم ملء جفونه ، فإنه من وراء الفساد مهلك أصحابه ، ومدمر عتاته وطغاته ، وقد جاء جواب القسم مؤكدًا بهذه التوكيدات تلاؤمًا مع حال المنكرين الذين يمارون في الساعة والحساب ، وقد ذكر الأئمة أن هذا التركيب من باب الاستعارة التمثيلية ، حيث شبه حاله ـ سبحانه ـ في كونه حفيظًا لأعمال العباد ومجازيًا عليها على النقير والقطمير ، ولا محيد للعباد عن موقف حسابه إلا إليه ، بحال من قعد على طريق السابلة يترصدهم ، ليظفر بالجائي أو لأخذ المكس أو نحو ذلك ، ولا مخلص لهم عن

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٠٤/٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢٩٦/١٦ .

(٣) سورة التوبة ٥ ، ١٠٧ ، الجن ٩ ، ٢٧ ، النبأ ٢١ .

المرور عليه ، فأطلق على الحالة المشبهة ما يعبر به عن الحالة المشبه بها ، وقد روى الزمخشري عن بعض العرب ، أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد[1] .

وكلامهم هذا جار على أن (المرصاد) اسم مكان ، ولأنه ـ سبحانه ـ منزه عن المكان فمن أجل ذلك قالوا بالاستعارة ، لكنه قد ذهب قوم إلى أن (المرصاد) صيغة مبالغة عبر بها عن اسم الفاعل ، وأصل الكلام : إن ربك لبالمرصاد . قال ابن عطية : ورده أبو حيان احتجاجًا بدخول الباء ؛ لأنه لو كان المعنى كذلك لما دخلت الباء ، ولو قيل إنها زائدة يرد ذلك بأنّ ما هنا ليس من مواضع زيادتها[2] ، وهذا أيضًا فرار من القول بالمبالغة في أفعال الله ـ سبحانه ـ وصفاته ، من أجل ذلك قالوا إنها اسم فاعل جاء على هيئة صيغة المبالغة ، وإن كان الأمر كذلك فلِمَ جاء على صيغة المبالغة ؟ وهل وراء ذلك أسرار ونكات ؟

ويحتمل أن يكون اسم زمان أيضًا ، وقد ذهب ابن عاشور إلى أن اللام في (المرصاد) لام الجنس ، وذكر أن ذلك يفيد عموم المتعلق أي بالمرصاد لكل فاعل ، فهو تمثيل لعموم علم الله ـ تعالى ـ بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم ، بحال اطلاع الرصد على تحركات العدو والمغيرين ، وهذا المثل كناية عن مجازاة كل عامل بعمله ، إذ لا يقصد

---

(١) الكشاف ٢٥١/٤ ، أنوار التنزيل ٥٥٧/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٥٦/٦ ، حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٧/٤ ، حاشية الصاوي ٣١٥/٤ ، الفتوحات الإلهية ٥٣٢/٤ ، تفسير جزء عم ص ٦٢ ، إعراب القرآن وبيانه ٤٧١/١٠ ، ٤٧٢ .

(٢) البحر المحيط ٤٧٠/٨ .

الرصد إلا الجزاء على العدوان[1] ، وفي ذلك إيحاء أيضًا ، بأن الله لا يظلم أحدًا ؛ إذ هو يحصى كل شيء بالحقائق لا بالظواهر .

والظاهر أن هذا التركيب جاء على هذا النحو تخويفًا وترهيبًا دون أن تدخل في معمعان هذه التأويلات ، التي تقف الآراء الكلامية من خلفها توجهها ، وربما يكون ذلك هو ما دفع ابن عطية إلى تأول (المرصاد) بالراصد . على أي حال فالكل من علمائنا إلى قبلة واحدة في هذا الأمر ، وهي تنزيه الذات العلية عن مشابهة الحوادث ، فهي غايتهم جميعًا وإن اختلفت بهم السبل إلى هذه الغاية .

هذا ، وقد استقر عند القرطبي أن جواب القسم هو هذه الآية الكريمة ، تأمل قوله : « وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي : والفجر وكذا وكذا إن ربك ... » [2] وربما يكون ما جاء عليه هذا التركيب من التوكيدات مرجحًا لكونه جواب القسم ، وذكرت لك قبلا أن كثرة الاحتمالات فيها إثراء للمعنى ، وربما يكون النظم القرآني قد عمد إلى ذلك .

وقد رأيت مطلع السورة الكريمة ، وكيف تحدر المقصد فيه تحدرًا بديعًا ، بإثبات الإياب بحجج عقلية لا راد لها عند من له أدنى بصر ، وكيف أفادت الآيات الأولى إثبات الحساب بالفحوى ، ثم تعلقت بها الآيات الأخرى التي توفرت على الاستدلال على الحساب ، وكيف سبقت الحجج ظاهرة ، بما للسورة الكريمة من الاختصاصات اللفظية والتركيبية التي حاولنا كشفها باستحضار ما يقاربها في مواضع أخر من الذكر

(١) التحرير والتنوير ٣٢٣/٣٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٣٨٦/١٠ .

الحكيم ، فقد تحرك المعنى في المطلع تحركًا متتابعًا بدأ بجذر المقصد (الإياب) ثم بعوده وهو (الحساب) ثم وقع جواب القسم في نهاية المطلع بهيئة الكلام التي حدثناك عنها ، فظهر المقصد كفلق الصبح ، بعد أن تحرك المعنى حركتين متتابعتين من خلال تدبر أحوال الكلام ثم تحدر المعنى بعد ذلك ؛ كشفًا عن أسباب الغفلة عن الإياب والحساب ومظاهرها مع الإنسان بعامة ، بعد الحديث عن أقوام مخصوصين كان لهم مزيد اختصاص بكثير فساد وبالغ طغيان .

فجواب القسم بمثابة معبر للمعنى من الحديث الخاص إلى الحديث العام ؛ لذا تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن في ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ : « وكما ارتبط هذا البيان لمصير الطغاة بالآية قبله ... يرتبط بالآيات بعده على وجه العظة والاعتبار في الإنسان المبتلى بالنعمة أو بالحرمان »[1] .

ويعقد الأستاذ سيد قطب الآيات التالية بالآية الكريمة ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ (الفجر:١٤) بقوله : « يرمي ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ، ولا يأخذ بظواهر الأمور ، لكن بحقائق الأشياء ... فأما الإنسان فتخطئ موازينه ، وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ما لم يتصل بميزان الله »[2] ، وهذا وجه آخر من وجوه التقاط الصلة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

وذكر المفسرون أن قوله : ﴿ **فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ** ﴾ (الفجر:١٥) متصل بقوله : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ (الفجر:١٤) كأنه قيل : إنه لبالمرصاد ومن الآخرة ،

---

(١) التفسير البياني ص ١٤٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١٦/٣٩٠٤ ، ٣٩٠٥ .

فلا يريد إلا السعي لها ، فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها[1] . وذلك لأن الفاء معلم ظاهر على الارتباط بين الآيات .

وواضح أن التناسب ظاهر ؛ إذ التقسيم هنا تقسيم للإنسان الغافل عن الحساب والإياب ، وهو من نعمة ربه على نوعين : نوع مبتلى بالإنعام فهو به فرح مفاخر مدع أن سبب إنعام ربه عليه حبه له ، وآخر محروم مدع أن سبب حرمانه إهانة الله له . فهو غافل في الحالين ، ومتخبط في التأويلين ، وهو تقسيم يتناسب مع مقصد السورة الكريمة وروح معناها ، ألا ترى أن الإنعام بدل أن يكون آية تدبر للغابرين (من قوم عاد وثمود وفرعون) كان سببًا عظيمًا من أسباب طغيانهم وجبروتهم ؟ فجاء تقسيم الإنسان من نعمة ربه متواصلاً مع قصص الغابرين ، ناظرًا إلى تراكيب الكلام هناك .

---

(١) الكشاف ٢٥١/٤ ، أنوار التنزيل ٥٥٧/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٥٦/٩ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري بهامش الطبري ٨١/١٢، حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٧/٤٥ ، وفتح القدير ٤٣٨/٥ .

الحديث عن جرائم الإنسان وعلاقته بحركة المعنى

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ (الفجر:١٥،١٦) دلت الفاء على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها، ومتفرع عليه لا محالة. ودلت (أما) على معنى: (مهما يكن من شيء)، وذلك أصل معناها، ومقتضى استعمالها، فقوى بها ارتباط جوابها بما قبلها، وقبل الفاء المتصلة بها، فلاح ذلك برقًا وامضًا، وانجلى بلمعه ما كان غامضًا. وإذا كان تفريع ما بعد هذه الفاء على ما قبلها خفيًّا فلنبينه بيانًا جليًّا[1]، ذلك أن الكلام السابق اشتمل على وصف ما كانت تتمتع به الأمم الممثل بها، مما أنعم الله عليها به من النعم، وهم لاهون عن دعوة رسل الله، ومعرضون عن طلب مرضاة ربهم ... وقد تضمن هذا الوهم أصولاً انبنى عليها، وهي: إنكار الجزاء في الآخرة، وإنكار الحياة الثانية، وتوهم دوام الأحوال، ففاء التفريع مرتبطة بجملة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ بما فيها من العموم[2].

والملحوظ أن البناء هنا جاء (بأما) التي تفيد التفصيل غالبًا، وعقدت الفاء هذا التفصيل بالكلام السابق، قال ابن عاشور: «وهذا التفصيل ليس

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٤/٣٠، ألا تبصر معي فرح الشيخ بكشف صلة الارتباط، وهو فرح من عانى وكابد البحث حتى أبصر، ومن ذاق عرف بعد الكشف وصعوبته، وقد آثرنا نقل كلامه على طوله لشديد ارتباطه بموضوع بحثنا.
(٢) التحرير والتنوير ٣٢٥/٣٠.

من قبيل تبيين المجمل ، ولكنه تمييز وفصل بين شيئين أو أشياء تشتبه أو تختلط »[١] ألا تلمح أن التركيب بهذه الهيئة التي لحظها ابن عاشور ينادي على مطلع السورة الكريمة ؟ وأنه بالرغم من أن الحديث عن ابتلاء الإنسان ورد في مواطن متعددة من الذكر الحكيم[٢] ، إلا أنه ليست فيه هذه السمة الواضحة الاتصال بقوله (والفجر) ، وأنت العليم بأن الفجر وقت اشتباه الليل والنهار ، واختلاطهما ؟ وقد جاء بالإنسان معرفًا ، وبهذا اللفظ الذي تستحضر به النسيان ؛ لأن هذا اللفظ أحسن تلاؤمًا من غيره في هذا السياق ، وتعريفه بلام الجنس ، ناسب القرآن الكريم في انتقاله من الحديث الخاص إلى الحديث العام ، وقد وقع التعبير بـ(إذا) تحققا لوقوع الشرط ، وزيدت (ما) صناعة[٣] ؛ تأكيدًا لوقوع الابتلاء ، والأنسب في هذا السياق ذكر لفظ الربوبية لا الألوهية ، لأن الحديث عن الإنعام .

ثم وقع الفعل بعد ذلك ﴿ **فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ** ﴾ معطوفًا بالفاء ؛ إيذانًا بأن هذا وقع متعاقبًا من غير تراخ ، وعبر بالإكرام كشفًا عن الإجزال في العطاء ، ويؤيده ورود الفعل المعطوف عليه مضعفًا (وَنَعَّمَهُ) ثم جاء خبر المبتدأ مقرونًا بالفاء ، لما في (أما) من معنى الشرط ، وتوسط (إذا) ومدخولها في حكم التأخير[٤] مبادرة بذكر سبب الغفلة ، لكن الفاء أخرت ليكون على لفظ الشرط والجزاء[٥] ؛ لأن أسلوب التعليق يفيد تردد الجواب بحسب وقوع الشرط . وفي قوله ﴿ **فَيَقُولُ** ﴾ إيحاء بتجدد ذلك من

(١) التحرير والتنوير ٣٢٩/٣٠.

(٢) سورة يونس ١٢، هود ١٠، الإسراء ١١، ٨٣، الزمر ٨، ٤٩، ٥١، المعارج ٢١.

(٣) أي لا عمل لها في الإعراب ، ولكن لها إضافة في المعنى .

(٤) مسائل الرازي وأجوبتها ص ٥٣١ .

(٥) الكشاف ٢٥٢/٤ .

الإنسان وتكرار وقوعه . ولأن ، السياق للذم استشكل كيف يذم الإنسان على قوله ﴿ أَكۡرَمَنِ ﴾ مع أنه صادق في هذا ؟ والجواب أن المراد به من يقول ذلك مفتخرًا على غيره ، ومتطاولاً به عليه ، ومعتقدًا استحقاق ذلك على ربه[1]. ثم جاء بعد ذلك ما يقابل هذا الصنف ، والمقابلة هنا خير وسيلة بيانية للكشف عما يشتبه ويختلط من الأمور .

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ ﴾ (الفجر:١٦) وقد ذكروا إشكالاً ، هو أنه كان حق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد (أما) و(أما) ، فكما صدر ما بعد (أما) الأولى بالاسم ، كان حق التوازن أن يصدر ما بعد (أما) الثانية بالاسم ، لكنها جاءت مصدرًا ما بعدها بالفعل ، وأجيب عن ذلك بأن التقدير : (وأما هو إذا ما ابتلاه)[2] لأن ما سبق يدل عليه ، وهو معلم ظاهر على ترابط الآي ، إلماعًا إلى أن الصنف المتحدث عنه في الابتلاء بالتضييق ، هو نفسه المتحدث عنه في التوسعة .

وتراه هنا كنى بقوله ﴿ فَقَدَرَ ﴾ عن التضييق ، مقابلة لما كنى به في مقابله ﴿ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾ عن التوسعة ، وترى هنا جواب الإنسان غير مشاكل ، كما رأيته في مقابله ؛ كشفًا عن أن تضييق الرزق يكون إهانة في نظر العبد ، كما أن الإكرام بالتوسعة كان إكرامًا في نظره قبل ذلك ؛ كشفًا عن قصور نظره وسوء فكره ؛ لأنه لو كان الفعل على ما يظن الإنسان لكان الكلام : وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فأهانه فيقول ربي أهانني .

وفي الآية مع ما بعدها شمة من أسلوب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج:١٩-٢١)

---

(١) البرهان ص ٢٩٤ .

(٢) الكشاف ٤/٢٥٢،الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال في الموضع نفسه.

كما ذكر علماؤنا(١) ، وقولهم شمة يوحي بتقارب المعاني في الموضعين ، كما يوحي باختصاص الآيات هنا بسمات تميزها عن أخواتها مما فيها من نور السياق ، وقد ذكر الأستاذ سيد قطب أيضًا أن هذه الآيات فيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية ، وقيمه غير الإيمانية ، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرًا وإيقاعًا(٢) .

وهو كلام يحتاج إلى شرح وإيضاح ، ويوجب أن تنظر في كل الآيات المتقاربة مع هذه الآيات ، وهي بترتيب المصحف الشريف هكذا . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٢) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (هود:١٠) . ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء:١١) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ (الإسراء:٨٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر:٨) . ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٤٩) . ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ

(١) روح المعاني ١٢٦/٣٠ ، تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ٦٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٣٩٠٢/٦ .

ﵟٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖﵞ

(فصلت: ٤٩-٥١) .

والآيات التي سبق ذكرها من سورة المعارج . هذا بالإضافة إلى ما جاء كذلك في الذكر الحكيم مذكوراً بلفظ الناس ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾ (يونس: ٢١) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ (الروم: ٣٣) . ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾ (الروم: ٣٦) هذا غير الآيات التي وردت بالفحوى .

والذي يعنينا هنا من إيراد هذه الآيات هو إبصار سمات الآيات الواردة في سورة الفجر :

أولاً : نجد أن سورة الفجر اختصت بأن التوسعة والتضييق على وجه الابتلاء تصريحًا ، والآيات الأخر أشارت إلى الابتلاء تلويحًا .

ثانيًا : أن الأمر هنا قائم على التقسيم ، وفي كل الآيات الأخر قائم على الترتيب ، والتقييم هو الذي يتناسب مع مطلع السورة الكريمة هنا ، فقد ذكر ابن عاشور أن التفصيل هنا ليس من قبيل تبيين الجمل ، ولكنه تمييز وفصل بين شيئين ، أو أشياء تختلط وتشتبه[1] والفجر أشبه وقت بالاشتباه أو الاختلاط .

ثالثًا : أن الابتلاء هنا مخصوص بالرزق في الحالين ، وليس عاما كما في الآيات الأخرى ، ذلك أن المال من أقوى أسباب الطغيان وأعلاها ،

(١) التحرير والتنوير ٣٢٩/٣٠ .

وهو أشبه شيء بحال الذين طغوا في البلاد ؛ لذا تراه عبر عن الحالة الأولى هنا في السور الأخرى بالخير ، أو بالإنعام ، أو بالرحمة ، أو بكشف الضر ، وهي تعبيرات تناسب سياقاتها ، كذلك تراه عبر عن الحالة الثانية هنا في السور الأخرى بالنزع ، أو بالشر ، أو بالضر ، تأمل قول ابن عاشور : « واقتصار الآية على تقتير الرزق في مقابلة النعمة دون غير ذلك من العلل والآفات ؛ لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج ، وقوة الأبدان ، فلا يهلكون إلا بقتل وهِرَم فيهم وفي ذويهم »(١) .

رابعًا : أن الحديث عن ابتلاء الإنسان في سورة الفجر جاء معقودًا بما بعده على هيئة التصعيد من القبيح إلى الأقبح ، فقد بينت آيات الابتلاء سوء أقوال الإنسان ، وأتبعها سوء أفعاله ، وذلك لا تجده في المواضع الأخر ، ولأن الحديث عن الابتلاء بالمال ، اصطفى القرآن من قبيح الأفعال هنا ما هو متعلق بالمال ، فلم يذكر الزنا ، ولا قطع الطريق ولا القتل ولا غير هذا . وهو ما يفسر لك اختصاص السورة بالحديث عن هذه الفعال القبيحة ، فكما حمل المال البائدين من عاد وثمود وفرعون على الطغيان كذلك يحمل الإنسان على الطغيان ، وتعرف أنت على ما أعطاه الله لهذه الأمم من المال في الذكر الحكيم .

هذا ، وإذا أردت أن تكون قناعتك كفلق الصبح بأن آيات ابتلاء الإنسان هنا لها سمة خاصة عما يقاربها في الذكر الحكيم ، فقارن بين التراكيب هنا ، والتراكيب في المواضع الأخرى ، ولا تهمل سياقات الآيات في كل ، فإن السياقات والمقاصد تكمن فيها علل التراكيب وأسرارها ، وتفتح لك

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٥/٣٠ .

الباب إلى مستسر التراكيب في الذكر الحكيم . وهو ما لا يتسع لـه المقـام هنا ؛ لكثرة الآيات المتقاربة ، ولكثرة سياقاتها واتساع مسـاحتها كـذلك . وإنما نستقصى فيما قلّت مقارباته . وحسبنا هنـا أن نضـع اليـد علـى علـة اختصاص الأسلوب في الحديث عن الابتلاء بسياق سورة الفجر .

ولك أن تلمح علو نبرة الترهيب في دقـائق التراكيـب هنـا ، كمـا تلمـح الإلماع إلى أن التوسعة في الرزق هنا توسعة فسيحة ، من ذلك أنك تـرى قول الإنسان ﴿ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴾ وهو ما يسمى بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي ، وهو يوحي إليك ببسط الرزق وسـعته ، أضـف إلى ذلـك التعـبير بالإكرام ، وما يوحي به من الإجزال ، وهذا أدعى إلى اغترار الإنسان بربه ، فإعطاء المال هنا بلا حدود ، لدرجة جعلت الإنسان يقول بلا تردد ﴿ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴾ ، كما تلاحظ أيضًا أن كلمة (الرزق) هنا أضفى عليها سياق سورة الفجر اختصاصًا ، فهي هنا يقصد بها المال .

وتـرى في مقابـل ذلـك ﴿ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ﴾ ولم يقـل : (فقـدر عليـه الرزق) لأن هذه الإضافة ، توحي أن ضـيق الـرزق لـيس في الإمسـاك عـن الإنعام على الإنسان فحسب ، وإنما التضـييق يكـون في الـرزق الموجـود ، بنزع كل بركة منه ، هذا ما توحي به الإضافة ، وفيه رائحة الترهيب ، كمـا أن فيه إيحاءً باغترار الإنسان ، إذ من كرم ربه له أن قدر عليه الرزق فجعله على قدر حاجته دون زيادة ، ولو أهانه لنزع منه الرزق كله ، وهـذه فائـدة التعبير (بقدر) على التعبير (بنزع) ، وكـذلك لا يعـبر (بقـتر) ولا (ضـيق) لأن كل ذلك يوحي بأن الرزق دون الحاجة . فلكل كلمة مقامها وسياقها .

لذا قـال الـرازي ـ رحمـه الله ـ : « فـإن قيـل : كيـف قـال الله تعـالى في الجملة الأولى (فأكرمه) ولم يقل في الجملة الثانية : (فأهانه) ؟ قلنـا : لأن

بسط الرزق إكرام لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة ، وقبضه ليس بإهانة ؛ لأن ترك الإنعام والإفضال ، لا يكون إهانة ، بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة . إلى أن يقول : وتضييق الرزق ليس إلا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزائد ، ألا ترى أنه يحسن أن تقول : أهانني إذا لم يهد لك»[1] . ثم تأتي الآيات بعد ذلك كاشفة عن سوء أفعالهم ، بعد الحديث عن قبح أقوالهم .

قال تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر:١٧-٢٠) .

جاءت « كلا » متصدرة هذه الآيات ، وهي معلم ظاهر على معاقد الكلام ، فهي هنا للردع والزجر ، ولا يدخل لها معنى آخر هنا[2] ؛ لما سبقها من الحديث عن ظن خاطئ من الإنسان ، وقد قال جماعة : متى سمعت (كلا) في سورة فاحكم بأنها مكية ، لأن فيها معنى التهديد والوعيد، وأكثر ما نزل ذلك بمكة ، لأن أكثر العتو كان بها[3] .

ولأن معناها الزجر قال العلماء : (كلا) ردع للإنسان عن قوله ، ثم قال : بل هناك شر من هذا القول ، وهو أن الله يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم[4].... ثم جاءت بعدها (بل) وهي للإضراب

---

(١) مسائل الرازي وأجوبتها ص ٥٣١ .

(٢) لأن من معانيها (حقا) أو (إي ونعم) كما ذهب العلماء ، فليس معناها الردع في مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ (العلق:٦) ولا قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ (الانفطار:٩) .

(٣) مغنى اللبيب ١٨٨/١ .

(٤) الكشاف ٢٥٢/٤ ، أنوار التنزيل ٥٥٨/٢ ، القرطبي ٧٣٨٨/١٠ .

الانتقالي ، فالكلام «انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل»[(١)] وقد ذكر الأستاذ سيد قطب أن هذه المجموعة من الآيات رد على تصوراتهم الخاطئة في الآيات الماضية ، وهي عنده تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم ، وهذه الآيات عنده بمثابة «قنطرة بين تقرير حالهم ، وما ينتظرهم في مآلهم ، فقد جاء بعده : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) .. فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول ، والتهديد الأخير»[(٢)].

والذي قاله ـ رحمه الله ـ فيه نظر لإيقاع الآيات ، ولا يشرح ذلك شرحًا وافيًا إلا الدراسة الصابرة لأصوات السورة القرآنية ، وكل ما يظهر في تراكيب الآيات وفي إيقاع الأصوات توابع لحركة المعنى في السورة .. وكل ما حكى من أقوال العلماء كشف لارتباطات الآيات بالسابق واللاحق من السياق .

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن المناسبة مناسبة مقابلة لمضمون (فأكرمه...) من جهة ما توهموه أن نعمة مالهم وسعة عيشهم تكريم من الله لهم[(٣)]. ويمكن أن يكون ما جاء بعد الردع والإضراب كشف عن سبب سعة الرزق وضيقه ؛ كذا قال البقاعي بعد أن بين أن الأسلوب يشعر بالتوبيخ ، قال ردعًا عن مثل هذا القول بأعظم أدوات الزجر معللا للتوسعة والإقتار[(٤)] ...) هذا وقد ورد الحديث عن اليتيم والمسكين والتراث في مواطن أخرى من الذكر الحكيم ، والذي يهمنا هنا هو محاولة الكشف

(١) روح المعاني ١٢٧/١٥ ، فتح القدير ٤٣٩/٥ .
(٢) في ظلال القرآن ٣٩٠٢/٦ .
(٣) التحرير والتنوير ٣٣٢/٣٠ .
(٤) نظم الدرر ٤١٩/٨ .

عن الخصائص الأسلوبية في حديث القرآن الكريم عن اليتيم والمسكين والتراث في سورة الفجر ، وماذا فيه من نور السياق .

ورد الحديث عن اليتيم والمسكين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، وغالبًا ما يؤتى بهما في سياق واحد ، وقد جاء ذكر اليتيم واليتامى في القرآن في واحد وعشرين موضعًا[(١)] غير موضع سورة الفجر ، وجاء ذكر المسكين والمساكين في اثنين وعشرين موضعًا غير موضع سورة الفجر ، وبالرغم من كثرة ورودهما إلا أن سورة الفجر لها خصائصها في الحديث عن هذين الصنفين من الضعفاء .

فنبرة التوبيخ هنا عالية ، فلا يعني قوله : ﴿ **كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ** ﴾ (الفجر:١٧) أنهم يطعمون اليتيم والعيب عليهم في عدم إكرامه ، بل يعني هذا أنهم لم يفكروا في إعطائه فضلاً عن أن يفكروا في إكرامه ، غير أنه أتى بالأسلوب كذلك إمعانًا في الذم ، وزيادة في التوبيخ والتقريع ، والقرينة على ذلك أن الإنسان لا يذم لعدم الإكرام ، وإنما يذم لمنع العطاء .

وجاء بالأسلوب كذلك تلاؤمًا مع قوله ﴿ **فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ** ﴾ (الفجر:١٥) فلقد كان الأحرى بهم وقد أقروا بالإكرام ، وبناء الأسلوب يوحي بتأكد اعترافهم بالإكرام ، كان الأحرى بهم أن يكرموا اليتيم ، غير أنهم لم يفعلوا هذا ولا ما دونه ، وهو ما لا تراه في المواقع الأخرى لليتيم في الذكر الحكيم ، والألف واللام في اليتيم للجنس ، ويؤيده أنه قال في حق المسكين ﴿ **وَلَا تَحَٰٓضُّونَ** ﴾ (الفجر:١٨) ولم يقل : ولا تطعمون فإن « نفى الحض على طعام المسكين نفي لإطعامه بطريق الأولى ، وهي دلالة

(١) سورة البقرة ٨٣ ، ١٧٧، ٢١٥، ٢٢٠، النساء ٢، ٣، ٦، ٨، ١٠، ٣٦، ١٢٧، الأنعام ١٥٢، الأنفال ٤١، الإسراء ٣٤، الكهف ٨٢، الحشر ٧ .

فحوى الخطاب ، أي لقلة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفع وساطة[1] » ، ويقوى هذا أنه قرئ (تحاضون) الأصل (تتحاضون) لكنه حذف إحدى التاءين تخفيفًا ، مما يدل على أنهم لم يفعلوا أقل أنواع البر تجاه المسكين ، فالأسلوب كله يجري على هذه السنة في التنبيه على الأعلى بالأدنى .

ملحوظ أن لفظ (يكرم) لم يقع في أي موضع في حديث القرآن عن اليتيم ، ومما يزيدك بصراً بروح التهكم عليهم أن الإكرام جاء مقابلاً لقوله ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ** ﴾ ، وسبق أن عرفت أن (قدر) أي أعطاه على قدر حاجته دون نقص أو زيادة ـ ومناط التهكم أن الأسلوب يوحى . . بالنظر إلى هذا السياق أنهم أعطوا اليتيم على قدر حاجته دون نقص أو زيادة ، وهم لم يفعلوا هذا ولا فوقه بالنظر إلى حديث السورة عن المسكين ، ولم تقع كلمة (يحض) إلا في سورتي الحاقة والماعون في حديث القرآن عن المسكين ، ومع ذلك تختص سورة الفجر بصيغة المفاعلة بالتخفيف الذي ذكرته له ، فإن كان عدم الإكرام وعدم التحاض مستقبحين ، فما بالكم بأقبح منه ؟!

المهم أن كل ذلك يدل على تفاحشهم في المعصية ، وتباهيهم في إتيانها ، وهو ما يتلاءم مع حديث السورة عن الطغيان والفساد ، وهذه الحلقة من الآيات بمثابة العلة من معنى السورة ، وهي جواب عن سؤال لماذا يكون الحساب والإياب ؟ وما أفلحت أمة هلك ضعفاؤها ، وضاع أيتامها ومساكينها ، وكلها جرائم متعلقة بالمال كما ذكرنا ، لأنه سبب الطغيان والفساد في الأرض .

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٣ .

هذا ، وقد جاءت الآيات بطريق الخطاب ، بعد أن كان الأسلوب بطريق الغيبة في قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ (الفجر:١٥) « لقصد مواجهتهم بالتوبيخ ، وهو بالمواجهة أوقع منه بالغيبة ، وفي ذلك تشديد للتقريع ، وتأكيد للتشنيع »(١) .

يا للعجب كيف يقرون بالإكرام ولا يكرمون ، وكيف يدعون الإهانة وقد أعطوا على قدر حاجتهم ، وقد منعوا هم فلم يعطوا قليلا ولا كثيرًا ، ولم يكونوا واسطة لفعل ذلك لا قليله ولا كثيره ؟!

وقد تعانقت آيتا الحديث عن اليتيم والمسكين تعانقًا بديعًا يدل على قوة ارتباطهما « فقد حصل في الآية احتباك ، لأنهم لما نفى إكرامهم اليتيم، وقوبل بنفي أن يحضوا على طعام المسكين ، علم أنهم لا يحضون على إكرامهم أيتامهم ، أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك ، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم »(٢) وشيء آخر هو أن الذي يحض على شيء يكون راغبًا في التلبس به ، فدل بناء الأسلوب على انتفاء رغبتهم في هذه الأفعال الحميدة أصلاً . وهذا الاحتباك الذي أشار إليه ابن عاشور ليس موجودًا في أي موقع من مواقع حديث القرآن عن اليتيم والمسكين ، وهو مما يؤكد رائحة التهكم التي ذكرناها ، وليس التهكم بعيدًا عن الأسلوب ، فالالتفات فيه توبيخ لهم كما ذكرنا .

ثم تحدث القرآن عن خسيسة أخرى لهم ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ (الفجر:١٩) وبناء الأسلوب جاء على طريقة توحي بتهالكهم على

(١) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٨/٤ ، فتح القدير ٤٣٩/٥، روح المعاني ١٢٧/١٥، التحرير والتنوير ٣٣٣/٣٠ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٣٣/٣٠ .

المال ، واستعباده إياهم ، فعبادتهم المال تعميهم عن تحري جمع المال من حرام أو من حلال ، وماذا تنتظر أنت من جمع مال فاسد غير متحرى فيه ؟ ما من ريب أنك تنتظر كل فساد وتتخيل كل طغيان ، وهذا الأسلوب هو الألصق بحال الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

وقد جاء الأسلوب بطريق الاستعارة ، أي انتفعوا به انتفاعًا لا يبقي منه شيئًا ، وقد ذكر ابن عاشور أن هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن[1] ، وهو كلام يحتاج إلى نفض كلام الجاهليين شعرًا ونثرًا لتأكيد هذه النتيجة ، والبحث في مبتكرات القرآن في الاستعارة أو الكناية أو التشبيه باب عظيم النفع ، صعب المسلك .

والتعبير ﴿ **تَأْكُلُونَ** ﴾ أيضًا يشعر بأنه تراث لا حق لهم فيه ، وهذه الاستعارة تصورهم لك قومًا انكبوا على طعام ، وقد أعماهم الجوع فراحوا يلتهمون الطعام التهامًا يعميهم عن كل خبث فيه ، وهذا التعبير يتناسب مع التعبيرات السابقة ، فقوم يمنعون اليتيم والمسكين الطعام ، يتصور منهم حبهم المال هذا الحب الشديد .

أضف إلى ذلك ما توحي به كلمات (التراث) من أنه مال مات حاميه ، وصار حماته صبية ونساء ، وهم حماة عاجزون عن الذَّبِّ عنه ، تأمل كيف يوحي الأسلوب بانتزاع كل رحمة من قلوبهم ، وقهرهم العجزة والضعفاء ؟ كيف تتصور من قوم هذه شيمتهم أن يطعموا مسكينا أو يتيمًا ، وهم يتحينون الانقضاض على أموالهم ؟ هل تتصور أن يعطوا أيًّا من هؤلاء شيئًا من أموالهم ، أو يحضوا على فعل هذا؟! هذه بلاغة القرآن التي تكشف عن خبيئة العصاة ، وعن دواخل نفوسهم ، ثم تأمل التعبير

(١) التحرير والتنوير ٣٣٤/٣٠ .

بالمفعول المطلق (أكلا) ، وما يوحي به من أنه أكل كالأكل الحقيقي ، إذ بعد أن يلتهم مال الضعفاء يجتهد في إخفائه اجتهاد من يخفى رائحة طعام التهمة دون أن يكون له أدنى حق فيه .

وتدل كلمة (لَمًّا) على قباحة فعلتهم ، فهم لم يميزوا بين طيب وخبيث ولا بين حق ولا غير حق ، لذا قال الليث : « اللم : الجمع الشديد ، وقال الحسن يأكل نصيبه ونصيب غيره »[1] ، وكأن هذه الآية الكريمة تلخيص دقيق لحديث القرآن عن أكل الميراث بغير حقه ، وهذه الآية بمثابة التأكيد على القبائح السابقة ، والآية التي تليها كالعلة والسبب لها ، وفي الوقت نفسه كالتعليل لحديث القرآن هنا عن اليتيم والمسكين والتراث . لأن حب المال هو الذي يوقع في كل هذه الموبقات ، ولم يوصف حب المال بهذا الوصف ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾ إلا في هذا الموضع من الذكر الحكيم ؛ كشفًا عن أنه حب يعمى يُصم ، وقد ذكروا أن الجم هنا الشديد ، وإنما قالوا هذا لأن الحب من المعاني النفسية وهي لا توصف بالكثرة ؛ لذا قال ابن عاشور : « الجم مستعار لمعنى القوي الشديد ، أي حبًّا مفرطًا ، وذلك محل ذم حب المال ، لأن إفراط حبه يوقع في الحرص على اكتسابه بالوسائل غير الحق كالغصب والاختلاس... »[2] .

وقد نبه البقاعي على ترتيب بديع لهذه الآية مع ما قبلها ، فقد ذكر أن الآيات السابقة دلت على حب الدنيا بأمر خارجي ، وهذه الآية ﴿ وَتَأْكُلُونَ . . . ﴾ دلت عليه بأمر في الإنسان ، ثم قال : « ولما كان ذلك قد يفعل عن ضرورة مع الكراهة ، قال ما هو صريح في المقصود

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٣٨٨/١٠ ، مجمع البيان للطبرسي ٧٤٠/١٠ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٣٤/٣٠ .

﴿ وَتُحِبُّونَ ... ﴾ أي على سبيل الاستمرار»[1] فقد كشف هذا الترتيب عن استمرار العادات الماضية فيهم لما أعماهم حب الدنيا .

وقد وردت ألفاظ مختصة بالسورة في حديثها عن اليتيم والمسكين وأكل المال (تكرمون ـ التراث ـ لَمًّا ـ جمًّا) مما يهديك إلى اكتشاف خصائص السورة في حديثها عن هذه الأمور ، مقارنة بحديث القرآن عنها في المواطن الأخر ، وقد وقفناك على شيء من ذلك ، وحديث القرآن عن حب المال بهذا الوصف هنا ، دال على أنهم يضيعون كل حقوق الله في سبيل هذه الغاية ، فتدخل كل الموبقات والمعاصي تحت هذا المعنى ، وهذه الحلقة من الآيات ، تمثل في مسيرة المعنى الكشف عن أسباب الحساب بهذا الأسلوب الموجز المعجز ، الذي يتناسب مع ما سبق من الآيات في حديث القرآن عن الفسدة الطاغين في الأمم الماضية ، وكان المال هو مرتكز حديث القرآن في هذه الحلقة ؛ لأن المال يُطْغِي ، ويدفع إلى الفساد ، وآية ذلك تقديم القرآن المال على البنين في حديثه عن التفاخر بالدنيا من مثل قوله تعالى : ﴿ **ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾ (الكهف:٤٦) وقوله : ﴿ **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ** ﴾ (القلم:١٣، ١٤) وقوله : ﴿ **وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا** ﴾ (سبأ:٣٥) ﴿ **أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا** ﴾ (الكهف:٣٤) إذ المال هو الذي يجمع إلى الإنسان القوة ، ويعينه على الفساد ، وهو سبب تقطيع الأواصر ، وسحق الضعفاء ، وكل فساد في المجتمعات .

هذه الحلقة إذن تلخيص لأسباب الحساب ، وتبيان لأسباب العذاب .

---

(١) نظم الدرر ٨/٤٢٠ .

من تدمير الكون إلى نهاية الحساب وظهور المعنى كفلق الصبح

تأتي هذه الحلقة ؛ كشفًا عن ميقات الحساب ووقوع ذلك العذاب ، هذا وقد صدرت الآيات بـ﴿ كَلَّآ ﴾ وهي معلم ظاهر على تواصلها مع ما قبلها ، وقد كشف البقاعي عن تناسب هذه الآيات مع ما قبلها فقال : «ولما كان السياق هاديًا إلى أن التقدير : يحسبون أن ذلك يوفر أموالهم ، ويحسن أحوالهم ، ويصلح بالهم ، زجر عنه بمجامع الزجر فقال : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (الفجر:٢١) ... ثم استأنف ذكر ما يوجب ندمهم ، وينبههم من رقدتهم ، ويعرفهم أن حب المال لا يقتضي نموه»[1] فكل تفكيرهم منكور ، وكل اعتقاداتهم في الأموال مردودة ؛ لذا جاءت (كلا) وفيها مجامع الزجر ـ كما قال البقاعي ـ إلماعًا إلى شدة إنكار ذلك عليهم .

وهذه الحلقة الأخيرة من مسيرة المعنى في السورة الكريمة توضع من مسيرة المعنى في ذروة سنامه ، إذ كل ما مضى من الآيات كان مهادًا ، بسوق الحجة العقلية حينًا ، وسوق الحجة الواقعية حينًا ، والتفنن في إثبات المعنى ، إلى أن تفجر المعنى في هذه الحلقة الأخيرة من السورة تفجرًا ظهر به المعنى كفلق الصبح ، فقد أثبت الإياب بمنطق العقل في

---

(١) نظم الدرر ٨/٤٢٠ .

القسم ، ثم أثبت الحساب في الدنيا ، ويقاس الغائب على الشاهد من آثار الأمم البائدة التي عتت عن أمر ربها ورسله ، ثم كانت الحلقة الثالثة كشفًا عن سبب عماية الطغاة ، وعلة بغيهم وطغيانهم وهو المال في مجمله ، ثم كانت الحلقة الرابعة والأخيرة في مسيرة المعنى ، وهي حلقة الحديث عن الحساب العام ، ويوم الجمع يوم الحساب .

والآية التي تتحدث هنا عن تدمير مظاهر الحياة آية جامعة ، إذ هي تكتنز كل ما جاء في القرآن الكريم ، وكأن القرآن العظيم يطوي الحديث طيًّا في شأن الواقعة ؛ لأن العناية متوجهة نحو بيان الحساب وهوله ﴿ **كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا** ﴾ (الفجر:٢١) وقد جاء الفعل مبنيًّا للمجهول (دكت) ، وترى بنت الشاطئ أن مجيئه كذلك ينسق مع الظاهرة الأسلوبية ، التي يطرد فيها صرف النظر عن الفاعل في أحداث الساعة[(١)] ، والأعلى ما أبصره البقاعي من أنه جاء كذلك إلماعًا إلى سهولة ذلك الأمر[(٢)] مع عظمته وهوله . وقد جاء الحديث عن تدمير الأرض في مواطن متعددة من الذكر الحكيم ، بالإخبار برجها[(٣)] أو زلزلتها[(٤)] ، أو رجفها[(٥)] ، أو دكها[(٦)] ، غير أن سورة الفجر قد اختصت بهذا البناء وبهذا السياق ، فقد وقعت (دكا) الأولى مفعولاً مطلقًا ، وهو يفيد توكيد الدك ، وقد اتفقت كلمة العلماء هنا على أن (دكا) الثانية ليست توكيدًا لفظيًّا لـ (دكا) الأولى ، وإنما هي عندهم على حد قولنا : (قرأت الكتاب بابا بابا) ، فكأن لكل موضع من الأرض من جبل وأكمة وثنية وعقبة دكا يخصه ، فالتكرار هنا

---

(١) التفسير البياني ص ١٥٤ .
(٢) نظم الدرر ٨/٤٢٠ .
(٣) الواقعة ٤ .
(٤) الزلزلة ١ .
(٥) المزمل ١٤ .
(٦) الحاقة ١٤ .

للاستيعاب[1]، وهو الأوفى بحق البلاغة، وهذا ما يميز تركيب سورة الفجر عن تركيب سورة الحاقة ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (الحاقة: ١٤) فالدّك في سورة الفجر دك مبالغ فيه، فهو دك شامل ومتتابع يدمر كل شيء، وقد أوثر دك الأرض بالحديث هنا لشموله مظاهر تدمير الكون التي تحدث عند قيام الساعة وهو منثور في الذكر الحكيم في مواطن متعددة منه، تصف هيئة تدمير الجبال ونسفها وصيرورتها عهنا وعهنا منفوشًا، وكثيبًا مهيلا، وهباء منبثًّا، وسرابا وغير ذلك، وهذا ما عنيته بقولي: إن الآية تلخيص للحادثات الواقعة عند قيام الساعة. وشيء آخر وراء اصطفاء السورة دك الأرض خاصة، هو أن «الأرض هي مكان ما يحشده المتكالبون على الدنيا من زخرف ومتاع، وما يشيدونه عليها من المباني ذات العماد والأوتاد[2]» فلا حاجة في السياق لذكر أهوال السماء.

وقد طوى السياق قصة البعث، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات، وهي حلقات مكتنزة بين آية دك الأرض وآية مجيء الله ـ عز وعلا ـ لأن السياق تتوجه عنايته إلى الحساب، إذ هو المقصود في السورة، وترى حركة المعنى في غاية سرعتها؛ لأن مقصد السورة يبرز هنا كفلق الصبح من بعد هذا المهاد الطويل الذي حدثتك عنه.

---

(١) الكشاف ٢٥٣/٤، نظم الدرر ٤٢١/٨، أنوار التنزيل ٥٥٨/٢، الفتوحات الإلهية ٥٣٤/٤، فتح القدير ٤٤٠/٥، ٤٤١، حاشية الصاوي ٣١٦/٤، روح المعاني ١٢٧/١٥، جزء عم ص ٦٠، التحرير والتنوير ٣٣٧/٣٠، التفسير البياني ص١٥٤، مجمع البيان ٧٤٠/١٠.

(٢) التفسير البياني ص ١٥٤.

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر:٢٢) ما من ريب أنك تحس الهول الرهيب وراء هذا التعبير الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، نعم هناك تراكيب يقارب معناها هذا المعنى ، لكنه يأتي على سبيل الاستفهام في مخاطبة المشركين ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ (الأنعام:١٥٨) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ (النحل:٣٣) .

فهذا إنشاء والذي معنا إخبار ، فليس المقام هنا للحوار والجدل ، وإنما المقام للتهديد والتخويف بعد أن أمتع السياق العقل بالإقناع والحجة والإحالة على الواقع . وتختص سورة الفجر بالقرن بين مجيء الله والملائكة في يوم الحساب ، وللقرآن الكريم حديث في موضع آخر على مجيء الملائكة صفًّا ، لكنه على غير هذا الوجه ، تأمل : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾

(النبأ:٣٨).

لن نقف بك كثيراً عند المسألة العقدية في هذه الآية ، وحسبك أن تعلم أن مذهب السلف هو الإيمان بالمجيء في إطار قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) فهو إيمان بالمجيء بلا كيف ، وهو الذي يطمئن إليه النفس ، والخلف يتأولون ، فالآية إما أن تكون على سبيل الاستعارة التمثيلية بأن مُثِّلَ حاله ـ تعالى ـ في ظهور آيات قدرته ، وآثار قهره وسلطانه بحال السلطان إذا حضر بنفسه ، فإنه حينئذ يظهر من آثار هيبته وسياسته ما لم يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه ، فاستعمل في الحال الأولى ما استعمل في الثانية .

وإما أن يكون في الكلام حذف والتقدير : وجاء أمر ربك[1] ، غير أن هذه التأويلات تطفئ الإحساس بهذا الهول المفزع ، فوق أنه دخول في علم الغيب ، وإكراه للعقل المخلوق الضعيف أن يفكر فيما لا تطيقه قدرته على الإطلاق ، فالأولى حمل الآية على الحقيقة ، وهو الأبر بالسياق ، والألصق بمجرى المعنى ـ إذ بعد الآية الكريمة ﴿ **وَجِاْىٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ** ﴾ (الفجر:٢٣) والذين تأولوا في الآية السابقة تأولوا هذه الآية ، والذين أجروا الأولى على الحقيقة ، أجروا هذه على الحقيقة ، وأنت تبصر أن السياق هنا للترهيب ، والتسليم بالحقيقة أعلى من التأويل ، والسياق للذين طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، ومن نهج نهجهم ، فالمناسب لمثل هؤلاء ، هو هذا التهديد الرهيب ، والتخويف المفزع .

وتتفرد سورة الفجر في حديثها عن اصطفاف الملائكة بقرن ذلك الاصطفاف بمجيء الجبار ـ جل وعز ـ كما تتفرد بوصفهم بـ﴿ **صَفًّا صَفًّا** ﴾ وقد ذكر ابن عاشور أن « صفا الأول حال من الملك ، وصفا الثاني لم يختلف المفسرون في أنه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف ... وشذ من المفسرين من سكت عنه ، ولا يحتمل حمله على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله ، إذ لا معنى للتأكيد[2] » وقد أجرى البقاعي كل الآية على

---

(١) بحر العلوم ٤٧٧/٣ ، الكشاف ٢٥٣/٤، المحرر الوجيز ٢٩٩/١٦، أنوار التنزيل ٥٥٨/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٧٣٩٢/١٠ ، نظم الدرر ٤٢١/٨ ، مسائل الرازي وأجوبتها ص٥٣١، حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٨/٤ ، روح المعاني ١٢٨/١٥ تفسير جزء عم ص ٦٥ ، التحرير والتنوير ٣٣٧/٣٠ ، ٣٣٨ ، في ظلال القرآن ٣٩٠٦/٦ ، التفسير البياني ص ١٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٧/٣٠ .

التمثيل[1] ، قد سبق رد هذا الرأي . وما ذهب إليه ابن عاشور ؛ اتباعًا لجمع المفسرين[2] هو الأعلى ، لأن الملائكة لهم مراتب ومنازل ، كما دل على ذلك صريح القرآن العظيم في كثير من المواطن ، وكما شرحته السنة المطهرة في كثير من الأحاديث ، ولا يفوتك أن اللام في قوله ﴿ **وَٱلْمَلَكُ** ﴾ لام الجنس ، وهي تفيد الاستغراق هنا .

وشيء آخر هو أن هذا التصاف والانتظام مع ما فيه الناس من الفزع في هذا اليوم ، مما يوحي بشدة التخويف ، وبعلو التهديد ، وفيه تمام إحاطة ، مما يوحي بشدة الأخذ .

ألا ترى أن هذه الإيحاءات هي التي تتناغى مع قوله تعالى بعد ﴿ **وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ** ... ﴾ إنه موقف رهيب الرب ـ سبحانه ـ وجنوده وعذابه كل ذلك حاضر ومحيط بالطاغين المفسدين الباغين العادين ، ولست مع من ذكر أن المجيء هنا على سبيل التجوز[3] ؛ احتجاجًا بأن النار لم تتحرك من مكانها ، وهذا في اعتقادي كمن يظن أن الأرض لا تتحرك ، وهو دس للأنف في غيهب الغيب المكنون عنا ، وقياس لأحوال الآخرة على أحوال الدنيا ، وهذا مردود ، لأنه دعاء العجز على الله أن يعطي مخلوقاته قدرات لا تقوى عقولنا على تصورها الآن . وقضية إنكار المجاز شيء ، وإنكار إجراء مثل هذه الآيات على المجاز شيء آخر ،

(١) نظم الدرر ٤٢١/٨ .
(٢) أنوار التنزيل بهامش زادة ٦٥٨/٤ ، الصاوي على الجلالين ٣١٧/٤ ، روح المعاني ١٢٨/١٥ .
(٣) أنوار التنزيل بهامش زادة ٦٥٨/٤ ، حاشية محيي الدين شيخ زادة ٦٥٨/٤ ، التفسير البياني ص ٥٧ .

ألا تبصر أن الله يجري على يد أنبيائه ويمنح أولياءه ما يخرق العادة ، وما يطيش أمامه العقل ، وما يطير منه الفؤاد ؛ إلماعًا إلى طلاقة قدرته ؛ وبيانًا أنها لا تحد بحد ولا يقادر قدرها . ولأجل تظاهر الأدلة على إجرائها على الحقيقة اختار هذا الرأي قوم[1] .

وما قصة الذي عنده علم من الكتاب عنك ببعيد ، وما معجزات عيسى ولا موسى ولا سليمان عليهم السلام بغائبة عنك .

ثم إن مجيء الفعل (جيء) بالبناء للمجهول قطع دابر الشبهة ، وبناء الفعل للمجهول هنا يوحي بعظمة الفاعل ، وتذهب النفس في تقديره كل مذهب ، الله الذي جاء بها ؟ أم ملائكته ؟ وأي عدد من ملائكته ؟ غير أن هول الموقف يعمي الذهن عن التفكر في الفاعل من هو ، بل هو في شغل شاغل بمجيء عذابه إليه ، وحضوره لديه ، إن دخوله جهنم حينئذ أهون عليه من إبصارها ، هذا ما يشعه نور التركيب ، فبناء الفعل للمجهول أوحى بهول الموقف ، وشدة الأخذ .

هذا ، وبالرغم من انتشار الحديث عن جهنم في مواطن متعددة من الذكر[2] الحكيم ، إلا أنك لا ترى هذا التركيب في أي من هذه المواطن ، فكأن التركيب من خصائص سورة الفجر ، وهو الملائم لأحوال عاد وثمود وفرعون ، والناهجين نهجهم .

وقد ذكر ابن عاشور أنه « إنما اقتصر على ذكر جهنم ، لأن المقصود في هذه السورة وعيد الذين لم يتذكروا ، وإلا فإن الجنة أيضًا محضرة

(١) روح المعاني ١٥/١٢٨، في ظلال القرآن ٦/٣٩٠٦ ، التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٨ .

(٢) ورد ذكرهم صراحة في أكثر من سبعين موضعًا ، وإذا ضممت إلى ذلك النار والسعير وسقر وغير ذلك كنت أمام حشد من الآيات .

يومئذ ، قال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ (ق:٣١) [١] وهو من لطائف البصر فيما حوته السورة ، ومن المراقبة النافذة للسياق .

وتلحظ هنا أن (يوم) أضيف إلى (إذ) وجاءت بتنوين العوض عن جملة ، ووقوعها كذلك من المعالم الدالة على معاقد الكلام ، إذ التقدير (وجيء يوم إذ تدك الأرض ....) وفيه عقد للكلام اللاحق بالسابق ، والمقدر كالمحذوف ، فهو تكرار بالتقدير وإن لم يكن تكرارًا بالذكر ، مما يهول من أمر هذا اليوم ، لذلك قالوا في (يومئذ بجهنم) بدل من (إذا دكت[٢]) ، وقال في (يومئذ يتذكر...) بدل من الأول وقد ذكروا أن العامل فيه (يتذكر[٣]) ، وكل هذا من اكتنازات التعبير القرآني ، فالتنوين في (إذ) يلفتك إلى ما مضى ، ويكرر عليك هول الدك ، وهول المجيء ، وهول جهنم وحضورها ، ليقرع ذلك عقل الإنسان الغافل، ويحضر الهول أمام مخيلته ؛ لذا قال الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ : « وتكرر ذكر اليوم في قوله أولا (إذا دكت ...) وقوله (وجيء يومئذ...) (فيومئذ ...) ليقوى عند استحضار دك الأرض ، وظهور الجلال الإلهي ، ثم إن التنوين في يومئذ الأولى نائب عن دكت الأرض ، وجيء ربك والملك ، وفي (يومئذ يتذكر) نائب عن ذلك وعن مجيء جهنم ، وفي يومئذ الثالثة (فيومئذ...) ينوب التنوين عما تقدم ، وعما تضمنه قوله (يقول يا ليتني قدمت...) ولا يخفى ما في ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ، ووجدان يشعر »[٤].

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٨ .
(٢) روح المعاني ٣٠/١٢٨ .
(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي القيسي ٢/٨١٨ .
(٤) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ٦٥ ، ٦٦ .

ومجيء (يتذكر) بالمضارع يتلاءم مع هذا السياق ، ففي موقف كهذا لابد أن يتكرر التذكر ، وجاء المسند إليه معرفًا بلام الجنس ، إيحاء بعموم البلوى وشدتها ، وهو مع ذلك إنسان يخصصه سياق سورة الفجر بما ذكره من الأوصاف (فأما الإنسان ...) .

وجاء بلفظ الإنسان ؛ إيماء إلى كثرة نسيانه ، وتكرر غفلته ، فيصعب تذكره التقدم والتحسر ﴿ يَقُولُ يَـٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر:٢٤) غير أنه أوقع جملة اعتراضية بين جملتين ، إما أن يكون بينهما كمال اتصال ، إذ وقعت الثانية من الأولى موقع بدل الاشتمال من يتذكر ، وإما أن تكون الثانية استئنافًا وقع جوابًا عن سؤال نشأ : ماذا يقول عند تذكره ؟ فقيل : يقول يا ليتني...[١] ، وهذا الاعتراض يعلي من تحسير الإنسان وتنديمه ، إذ التذكر ليس بنافعه ، لذا قالوا : أثبت له التذكر ، ثم نفاه بمعنى أنه لا ينتفع به فكأنه لم يكن ، وكان ينبغي له أن يتذكر في وقت ينفعه ذلك[٢] ، وقيل هناك مضاف محذوف أي : وأنى له منفعة الذكرى ، قالوا : ولابد من تقديره لئلا يكون تناقض[٣] .

والاستفهام هنا استفهام إنكاري[٤] ؛ لذا يبعد ما قالوا من حتمية التقدير دفعًا للتناقض ، وشيء آخر هو أن عدم التقدير يفيد تأكيد انتفاء منفعة الذكرى ، إذ التركيب معناه إنكار عليه أن يفعل ما لا فائدة فيه ، لذا جاء بما يدل على البعد ، وهو الاستفهام الإنكاري ، فالتذكر غير المفيد كأنه لم يكن ، وهذا أبلغ في التقديم ، وقد ذكر أبو السعود أن هذا الاعتراض جيء

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٣٥/٤ ، إرشاد العقل السليم ١٥٨/٩ ، فتح القدير ٤٤١/٥ .
(٢) مجمع البيان للطبرسي ٧٤١/١٠ .
(٣) روح المعاني ٢٩/٣٠ .
(٤) حاشية الصاوي ٣١٧/٤ .

به لتحقيق أنه ليس يتـذكر حقيقـة لعرائـه عـن الجـدوى بعـدم وقوعـه في أوانه[1]. والأول أولى ، والثـاني وجيـه ، لأن نفـي تـذكره يـدل علـى عظـم الموقف ، وعلى إصابته بالدهش من هول ما وقع ؛ لذا لا يتذكر .

وإذا كان التذكر لا يكون حقيقة ، فعلام يكون الندم ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر:٢٤) وقد وقع في سياقات كثيرة في الذكر الحكيم أن الإنسان يرى عمله ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧، ٨) ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا ﴾ (الكهف:٤٩) إلى آخر ما ورد في الذكر الحكيم ، وما من ريب أنه عند الذكر يكون التذكر والاتعاظ ، فمناط التقديم هو التذكر حين فوات الأوان.

وقد ورد الحديث عن تذكر الإنسان في سورة النازعات ﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ (النازعات:٣٥، ٣٦) غير أن سورة الفجر تختص بحذف المفعول ، وبهذه الجملة الاعتراضية ، والكناية عن الندم في هذا الوقت وردت في كثير من آي الذكر الحكيم إلا أن سورة الفجر تختص بهذا الفعل (قدمت) وهذا المتعلق (لحياتي) ، مما يجعل هذا التركيب تلخيصًا موجـزًا لكنايات القرآن عن ندم الإنسان عند الحساب ، فالتقديم يشمل ﴿ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ (الأنعام:٢٧) ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾ (الفرقان:٢٧، ٢٨) وغير ذلك[2] مما يقاربه في الذكر الحكيم ، إذ كله معناه العام ليتني أرجع إلى الدنيا فأعمل للآخرة . وهذا المتعلق

(١) إرشاد العقل السليم ١٥٨/٩ .

(٢) سورة الأحزاب ٦٦ ، الزخرف ٣٨ ، الحاقة ٢٥ : ٢٦ ، النبأ ٤٠ .

يوحي بتمام التندم وغاية التحسر ، إذ فيه أنه لم تكن له حياة قبل ذلك من هول ما رأى ، وقد حذف مفعول (قدمت) إيجازًا في اللفظ وإطنابًا في المعنى ، وقد جاء أسلوب الإنشاء (بليت) التي تفيد تمني المستحيل ، وهي مسبوقة (بيا) التي تفيد التنبيه والتحسر ، مما يوحي بأن متمناهم لن يتحقق ، وذلك مما يعلي حسرتهم .

فهذا التركيب ألصق بسياق سورة الفجر بكثرة الحذف الذي فيها ، وإيجاز الهول المذكور في سياقها . وهذا ما ذكرته من اكتساء التراكيب المشتركة خصائص تربطها بالسياق .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ ﴾ (الفجر:٢٥) الفاء هذه من معاقد الكلام ، إذ وقعت كذلك ، لأن (إذا) تتضمن معنى الشرط ، وقوله (يومئذ) يلفتنا إلى كل ما ذكر من الأحوال والأهوال ، وفي الحذف من الإيجاز واكتناز التعبير ما فيه ، وفي الحذف استحضار للأهوال ، وإعادة لذكرها بالتقدير حتى يقرع ذلك مسامع الغافلين ، ويزعج القلوب من غفلتها والأفئدة من سكرها . إنك ترى الأسلوب هنا يتكئ على الحذف ، وهو من أعلى وسائل البيان في هذا السياق ، وفي الأسلوب الإيجازان إيجاز القصر ، وذلك ما تبصره حين طوى السياق الأحداث طيًّا عجيبًا ، ولخص الأحداث والأهوال تلخيصًا بديعًا ، وإيجاز الحذف الذي تراه في تكرار (إذ) المنونة والتي يعوض بتنوينها عن الجملة والجمل ، ذلك أن المعنى هنا يتحدر تحدرًا غاضبًا ، وتتلاطم أمواجه ، من بعد ما أطال المهاد والفرش من مطلع السورة إلى قوله ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (الفجر:٢١) .

وقد ذكر العلامة ابن عاشور ـ كما هداه الأسلوب ـ أن المقصود من هذا الكلام ـ كلا إذا دكت الأرض ... ـ هو قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ

أَحَدٌ ﴾ (الفجر:٢٥) وقوله : ﴿ **يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ** ﴾ (الفجر:٢٧) وأما ما سبق من قوله: ﴿ **إِذَا دُكَّتِ** ﴾ (الفجر:٢١) إلى قوله: ﴿ **وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ** ﴾ (الفجر:٢٣) فهو توطئة وتشويق لسماع ما يجيء بعده ، وتهويل لشأن ذلك اليوم ، وهو الوقت الذي عرف بإضافة جملة (دكت) وما بعدها من الجمل ، وقد عرف بأشراط حلوله ، وبما يقع فيه من هول العقاب[١] .

وهذا ما يبوح به تركيب الجملة ، فالكلام معقود عقدًا بديعًا ، وهكذا تبصر كيف تناغى الكلام في السورة الكريمة ، وكيف تواصل حتى صار كالجملة المفردة ، وكما أبصرت في مطلع السورة أحوال الأمم ، وأن الله لا يعذب عذابه أحد ، كذلك في الآخرة لا يعذب عذابه أحد ، فيتعانق بذلك في السورة الكريمة المعنى وما يؤكده ، ويقاس المعنى الغائب على المعنى الحاضر ، وهو من تواثبات المعنى في آخر السورة إلى ما جاء في أولها ، وهو تعانق بديع في التراكيب لا تراه في كلام البشر ، فسبحان من أنزله ولله نوره .

وقد جاء الكشف عن عذاب الله في هذا الوقت بالإيجاز الذي يوحي بهول عذابه ـ سبحانه ـ وتعظيمه ، فقد أسند التعذيب والإيثاق إلى الله تعالى ، مما يبلغ الترويع به منتهاه في موقف الحساب والجزاء والعقاب[٢] وقد ذكروا أن الهاء في (عذابه ـ ووثاقه) إما أن تكون لله ـ عز وجل ـ فيكون المعنى لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه ـ سبحانه ـ أحد سواه[٣] ، وهو مما يكاد ينخلع منه القلب ، حين يعلم الإنسان أن جرمه اقتضى أن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٥/٣٠ .
(٢) التفسير البياني ص ١٥٩ بتصرف .
(٣) روح المعاني ٢٩/٣٠ .

يتولى الجبار تعذيبه بنفسه ، ويمكن أن يكون الضمير في (عذابه ووثاقه) من إضافة المصدر إلى مفعوله ، لا إلى فاعله كما مضى ـ وحينئذ يكون الضمير عائدًا للإنسان ، ويكون (عذاب ـ ووثاق) مفعولين مطلقين مبينين للنوع على معنى التشبيه البليغ[1] ، أي لا يعذب مثل عذابه أحد ، ولا يوثق مثل وثاقه أحد ، وفيه أيضًا نبرة ترهيب عالية ، لأن المعنى أنه يعذب عذابًا لا يعذبه أحد من العصاة ، مما يوحي بهوله وشدته ، ويؤيد هذا المعنى قراءة (يعذب ويوثق) بالبناء للمفعول[2] ، وهذا التركيب هو الذي يناسب مقام التغليظ ؛ لذا لا تجد له نظيرًا في الذكر الحكيم ، لأنه الملائم للإنسان الوارد في هذا السياق ، وقد وقع الفاعل أو نائب الفاعل (أحد) بهذا اللفظ الدقيق الذي لا يقتضي العدد ، أما لفظ (واحد) فهو يقتضي العدد ، فتقول واحد ، اثنان ... إلخ .

وقد وقع ـ مع دلالته هذه ـ نكرة في سياق نفي مما دل على الاستغراق ، فإن كان فاعلاً ، فإنه لن يعذب أحد عذابه ألبتة ، وإن كان نائب فاعل ، فلن يعذب أحد على الإطلاق كما يعذب هذا الإنسان ، فأفاد هذا التركيب تفرد المعذِّب أو تفرد المعذَّب على القراءتين .

وكما لا تجد نظيرًا لهذا التركيب في الذكر الحكيم ، لا تجد نظيرا للتركيب المعطوف عليه أيضًا (ولا يوثق وثاقه أحد) وقد جاء التعبير بالإيثاق ولم يجئ بالتقييد ، لأن الوثاق هو أبلغ القيد وأقواه ، وهذا أيضًا عذاب إلى العذاب ، كأنه على معنى قول ربنا ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ** ﴾ (النحل:٨٨)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٤٩ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٠٩ .

وفـرق بيـن أن تـعـذب طليقًا وأن تعذب مقيدًا ، وقيـد الله لا منتهـى لـه ، ولا حد يحده ، فإن وثاقه ـ جل وعز ـ قوي محيط .

وكل ذلك مما يلائـم أحـوال الطـاغين ، وجـرائم البـاغين ، ومعاصـي الإنسان المذكور في السـياق ، والكـلام علـى هـذا التركيـب كـالكلام علـى التركيب السابق .

المعنى يحط رحاله

أنت في نهاية هذا السياق لا يكاد يقر لقلبك قرار ، ولا تكاد تهدأ لك نفس ، ولا يكاد يطمئن منك الفؤاد ، فتسمع بعد ذلك قول ربك ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴾ (الفجر:٢٧) فتجتمع نفسك ، ويثلج صدرك ، ويطمئن فؤادك ، وقد جاء الأسلوب الإنشائي هنا بطريق النداء ، مما يوحي بحال هذه النفس ، وقد باعد الخوف بينها وبين الأمن ، يقول الإمام محمد عبده : « ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من ضروب إيجاز القرآن التي لا تخطر لبشر على بال ؛ فإن التقي الخائف الذي يخاف مقام ربه إذا سمع ذلك الوعيد المتقدم ، أخذت الرهبة نفسه ، وأفعمت الخشية قلبه ، فبينا هو كذلك إذ ينقذه هذا النداء ، ويصعد به إلى أكرم مناد »(١) .

وفي أسلوب النداء إيحاء بالقرب ، وإشعار بالعطف ، وقد ناداها بوصف لا نظير له في الذكر الحكيم ، ثناء عليها وتطمينا لها ، ووصفها بالمطمئنة إلماع إلى أن الله يبعد عن هذه النفس هواجس القلق والشك والحيرة والخوف ؛ لأن (اطمأن) في العربية من أفعال القلوب ، فهذا الوصف لا يكون إلا من القلب وفيه(٢) .

وقد جاء التناسب بين الآيات وسابقتها بطريق التباين ، فهذا يقول :

(١) تفسير جزء عم ص ٦٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٩١٧/٦ ، التفسير البياني ص ١٦١ بتصرف .

﴿ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ، وهذه يقول الله ـ تعالى ـ لها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ﴾ (الفجر:٢٧)[١] وربما تلمح أيضًا تناسبًا بين ذكر النفس بهذا الوصف ﴿ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ وبين ما أقسم الله به في أول السورة ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ فهو وقت سكينة النفوس واطمئنانها الذي يعقبه الانتشار للمعاش ؛ لذا لا ترى النفس موصوفة بهذا الوصف في غير هذا الموضع في الذكر الحكيم .

وفي هذا الوصف أيضًا إيماء إلى وجه بناء الخبر ، فهي أعلى مراتب النفس لذا سيكون لها أفضل الجزاء ، ﴿ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ (الفجر:٢٨). ذكر القفّال أن الفعل ، وإن كان أمرًا في الظاهر ، فهو خبر في المعنى[٢] ، ويكون استعمال الإنشاء في الخبر دليلاً على عظيم اهتمامه ـ سبحانه ـ بهم ، لما يشعر به أسلوب الأمر من استنهاض همتهم مما يبعد الخوف عنهم ، لإشعاره بالقرب ، كما تقول لمن كان خائفًا منك وقد اقترب منك : اقترب . تريد إيناسه ، وإذهاب وحشته ، وهذا القول هو الملائم لوصف النفس في هذا السياق ، ولتناغيه مع أسلوب النداء الذي يوحي بالقرب والعطف والحنو أيضًا .

هذا ، وقد كثرت الأقوال في معنى الرجوع إلى الرب ، هل هو على الحقيقة ، أم أن الأمر على التأول ؟ والدافع من وراء ذلك كلامي لا لغوي ، والذي أبصره أنه رجوع نؤمن به ولا ندرك حقيقته ، والذين أولوا أيضًا يقصدون تنزيه ذات الله ـ سبحانه ـ أيضًا ، وذلك لما تشعر به (إلى) من الانتهاء ، والذين تأولوا لهم طريقان ، إما إجراء ذلك على التمثيل ، أو على

---

(١) روح المعاني ١٣٠/٣٠ ، الفتوحات الإلهية ٥٣٥/٤ ، زادة على البيضاوي ٦٥٩/٤ بتصرف .
(٢) الفتوحات الإلهية ٥٣٥/٥ .

الحذف (إلى لقاء ربك) ، أو غير هذا ، ومنهم من ذكر أن ربك هنا بمعنى صاحبك ، ويكون المراد ارجعي إلى جسدك قاله ابن عباس وعطاء وجماعة واختاره ابن جرير[1]، ويؤيده إضافة (رب) إلى ضمير الخطاب الذي يعود إلى النفس ، وما جاء بعده من الإضافة إلى ضمير يعود على الذات العلية (في عبادي) (في جنتي) .

وفي إجراء الكلام على حقيقته تناغ مع مقام الإشعار بالقرب ، ويكون المراد بهذا الوصف (رب) الله ـ سبحانه ـ ويكون إظهاراً في مقام الإضمار بيانًا عن ولاء هذه النفس ، وكشفًا عن اختصاصها ، وتكون الإضافة إلى ضمير الخطاب تشريفًا كما ذكر ابن عاشور[2]، وهو ما يطمئن القلب إليه .

ومما يعلي من هذا ، وقوع حالين متتابعين من الفاعل في (ارجعي) وهما (راضية مرضية) ، وفي الحال الأولى كناية عن إعطاء هذه النفس كل ما تطمح إليه ، وفي الثانية ثناء عليها علاوة على الثناء الأول بوصفها بالمطمئنة ، وكناية عن الإفاضة في الإنعام عليها كما ذكر ابن عاشور[3] .

والملحوظ أن (راضية) اسم فاعل يعمل عمل الفعل ، والرضا من مواد القلوب وهو متناغ مع الاطمئنان ، مما يعلي من شأن العطاء ويضاعف منه . وقد حذف متعلق (راضية) ليشمل ما جاء في الذكر الحكيم من إرضاء النفس عن عملها ، ورضائها عن عطاء ربها ، وذلك من التناسب بين سورتي الفجر والغاشية ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ (الغاشية:٨،٩) وقد وقع التعبير عن رضا النفس عن عطاء الله ، ورضا الله عنها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٣٩٦/١٠ ، روح المعاني ١٣١/٣٠ ، ١٣٢ ، الفتوحات الإلهية ٥٣٥/٤ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٤٢/٣٠ بتصرف .
(٣) السابق ٣٤٣/٣٠ بتصرف .

في مواطن أخرى من الذكر الحكيم ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (المائدة:١١٩) ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة:٢٢) ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ (البينة:٨) وتلحظ أن رضا الله عنها مقدم في كل المواقع ، عن رضاها عن الله ، وكل ذلك ما يضاعف من شأن العطاء ، وهذا ما تتميز به سورة الفجر ، فوق أن ما في سورة الفجر جاء بطريق الحال المؤسسة ، التي لا غناء للتعبير عنها ، فهو رجوع مغمور بالرضا من المنادى والمنادي ، وهذا من أرفع المقامات وأشرفها ، ودراسة أسرار القيود من المباحث التي لم تأخذ حظها من الدرس البلاغي .

﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (الفجر:٢٩،٣٠) جاء الأمر بفاء التعقيب ، التي تدل أن الفعل يقع بلا تراخ ، وهذا مما يناسب مقام الرضا . (في عبادي) ذكر العلماء أن الدخول في عباد الله الصالحين جنة روحانية[١]، وأنها غير متراخية عن الموت ، وهذا جريًا على ما ذكروه من أن المراد بـ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ إلى جسدك وصاحبك ، واستأنسوا لذلك بما أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن جبير قال: (قرئت عند النبي ﷺ ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (الفجر:٢٧) الآية ، فقال أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ إن هذا لحسن ، فقال رسول الله ﷺ أما إن الملك سيقولها لك عند الموت[٢]. وهو ـ والله ـ وجه ، غير أنه لا يمنع أن يكون هذا في الآخرة ـ إن شاء الله ـ لأن النعيم لا تتم لذته إلا بالرفقة الصالحة ، فقد ذكروا أن أرواح الصالحين كالمرايا المصقولة المجلوة ، فإذا انضم بعضها إلى بعض ينعكس إلى كل واحدة

(١) مفاتيح الغيب ٤١٦/١٦ ، الفتوحات الإلهية ٥٣٦/٤ ، روح المعاني ١٣١/٣٠ .
(٢) روح المعاني ١٣١/٣٠ .

ينعكس إلى كل واحدة ما في مقابلتها من الفضائل والكمالات ، فيكون ذلك الانضمام سببًا لتكامل السعادات الروحانية .

ثم إن الدخول في الصالحين هو أبلغ المنى عند المؤمنين ، ولو استحضرت آيات الذكر الحكيم في هذا الصدد لأيقنت أن ذلك كما يكون عقب الموت ، يكون أيضًا في الآخرة قال تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ (العنكبوت:٩) ومعلوم أن عباد الله في سياق السورة صالحون ، فالإضافة في (عبادي) إضافة تشريف ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ (المائدة:٨٤) والدخول في عباد الله الصالحين المتمنى الأعظم لسيدنا ـ سليمان ـ عليه السلام ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ (النمل:١٩) .

فهي جنة روحانية ، وبستان نوراني ، فاستئناس النفس بالجليس الصالح أعلى وأحب إليها من ذوقها الطعوم ؛ لذا قدم الجنة الروحانية وذكر الأمر إليها بفاء التعقيب ، لأنها أحب إلى النفس المطمئنة ، وألصق بمقام الرضا ، ثم ذكر بعد ذلك الجنة الجسمانية بالواو ، لأن النفس الراضية المطمئنة إلى الأولى تائقة وبها عالقة ، إذ إليها مطامح أبصارها ، وبها مطالع سرورها .

وهنا حط المعنى رحاله ، وقد أبصرت في التراكيب ترحاله ، حين انبعث حثيثًا كضوء الفجر ، وحين تحرك ساعيًا بقصص الغابرين ، وعرج مهرولاً على أحوال الإنس الطاغين ، وتحدر جريا بذكر أهوال الحساب ،

وانتهت رحلته بتقسيم المحاسبين إلى معـذبين ومـنعمين ، والحمـد لله رب العالمين .

وختامًا أسأل الله أن يعفو عن زلاتي ، وأن يستر عوراتي ، وألا يكافئني على قدر جهدي ، فكل جهد مع الكتاب العزيز هو جهد المقـل ، وأسـأله أن يجازيني بفضله لا بعدلـه ، وأن يجعلـني مـن عبيـد الإحسـان لا عبيـد الامتحان ، فإن من نوقش الحساب أخذه العذاب .

وقد احتاط هذا القلم بفهم كلام الأئمة قدر الطاقة ، وبذل كل الوسـع في سبيل فقه بلاغة السورة ، وإبصار حركة المعنى ، إذ هـو ـ دومًـا ـ يسـتعيذ بالله أن يكون جريئًا في خط ما يفهم من كلام ربه ، ولولا محاولة علمائنـا ما حاولـنا ، ولـولا شغفـنا بمعـرفـة الإعجاز البـلاغـي في الـذكر الحكـيم ما قاربنا الحمى ، فغفرانك اللهم ، وعفوك اللهم .

ربما يدل البحث على العناء ، وهذا سر اختياري سورة من القصار ، لأن إبصار هذا في المفصل والطوال مما يقتضي وقتًا وجهدًا ربما يهيئه الله لـي ـ فيمـا يسـتقبل مـن عمـل ـ أو لغـيري ، وآخـر دعوانـا أن الحمـد لله رب العالمين ، وصل اللهم يا رب على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر المسمى بمنتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات للشيخ أحمد بن حمد البناء ، تحقيق الدكتور شعبان إسماعيل ، الكليات الأزهرية ، ١٤٠٧هـ .

٢- أحكام القرآن لابن العربي ، تحقيق محمد علي البجاوي ، بيروت بدون تاريخ .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ الشنقيطي ، وتتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٣هـ .

٥- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش ، دار ابن كثير سورية ، ١٤١٢هـ .

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي ، مصطفى الحلبي ، ١٣٨٨هـ .

٧- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مصطفى الحلبي ، ١٣٩٨هـ .

٨- الإشارات والتنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني ، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، نهضة مصر .

٩- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، مكتبة صبيح ١٣١٢هـ.

١٠- بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي تحقيق الشيخ علي معوض ، وآخرين ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ .

١١- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث .

١٢- البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي ، تحقيق الدكتور سعيد الفلاح ، جامعة قاريونس ، ١٩٨٨م .

١٣- البحر المحيط لأبي حيان ، دار الفكر ، ١٣٩٨هـ .
١٤- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ، عيسى الحلبي .
١٥- تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ، دار الشعب .
١٦- تفسير المراغي ، الشيخ أحمد المراغي ، دار إحياء التراث العربي بيروت بدون تاريخ .
١٧- تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام .
١٨- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ، مكتبة المتنبي .
١٩- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية ، ١٩٧٢م.
٢٠- الترجي في آي من الذكر الحكيم ، الدكتور إبراهيم صلاح الهدهد ، بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٩٧م .
٢١- التفسير البياني للقرآن الكريم ، دكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، ١٩٧٧م .
٢٢- جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ، دار الريان القاهرة ، ١٤٠٧هـ .
٢٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، دار الغد العربي .
٢٤- حسن الصنيع للشيخ محمد البسيوني البيباني ، التقدم العلمية ، ١٣٩٢هـ .
٢٥- حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٢هـ.
٢٦- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٧هـ .
٢٧- حاشية الشيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي ، دار إحياء التراث العربي بدون تاريخ .
٢٨- حاشية المنياوي على شرح حلية اللب المصون ، مصطفى الحلبي ، ١٣٥٧هـ .
٢٩- خلاصة المعاني لمحمد بن الحسين المفتي ، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، الناشرون العرب .

٣٠- دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، الدكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ط . ثانية ، ١٤٠٨هـ .
٣١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ، بيروت ١٤٠٥هـ .
٣٢- السراج المنير للخطيب الشربيني ، دار المعرفة بيروت ثانية بدون تاريخ .
٣٣- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية تطبيقية دكتورإبراهيم صلاح الهدهـد ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، ١٤٤٠هـ .
٣٤- عناية القاضي وكفاية الراضي للشهاب الخفاجي ، بولاق .
٣٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري بهامش تفسير الطبري ، دار الريان ، ١٤٠٧هـ .
٣٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للقاضي الشوكاني ، دار الفكر بيروت .
٣٧- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، دار الشروق ، ١٤٠٦هـ .
٣٨- الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ، عيسى الحلبي .
٣٩- الفوائد المنسوب لابن القيم ، دار الريان ـ القاهرة ، ١٩٨٧م .
٤٠- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ١٤٠٨هـ .
٤١- تفسير الكشاف للإمام الزمخشري ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٩٢هـ .
٤٢- مسائل الرازي وأجوبتها أو النموذج الجليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل ، مجلة الأزهر ، ١٤١٠هـ .
٤٣- مجمع البيان للطبرسي ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٨٨م .
٤٤- مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق دكتور حاتم الصالح الضامن مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٨هـ .
٤٥- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ، تحقيق دكتـور محمد عبد السميع حسنين ، ط . الرياض ، ١٤٠٨هـ .
٤٦- مفاتيح الغيب للرازي ، دار الغد العربي ، ١٩٩٣م .

٤٧- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، دكتور محمد محمد أبوموسى مكتبة وهبة ـ القاهرة ، ١٩٩٦م .
٤٨- مفتاح العلوم للسكاكي تحقيق نعيم زرزور ط . أولى دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ .
٤٩- المحرر الوجيز لابن عطية ، تحقيق المجلس العلمي بتارودانت ، بدون تاريخ .
٥٠- المصباح لبدر الدين بن مالك ، تحقيق دكتور حسني عبد الجليل ، مكتبة الآداب بدون تاريخ .
٥١- المطول لسعد الدين التفتازاني ، ط . تركيا ، بدون تاريخ .
٥٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .
٥٣- المفردات للراغب الأصفهاني ، تحقيق سيد كيلاني ، مصطفى الحلبي ، ١٩٦١م .
٥٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ .
٥٥- النظم الفني في القرآن ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب .
٥٦- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ، ١٣٢٣هـ .

الفهرس